مصر - أفغانستان - الصومال
الدولة المدنية.. وشعار الخلافة

د. رفعت السعيد

بطاقة فهرسة

مصر - افغانستان - الصومال والدولة المدنية..

وشعار الخلافة

القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر، ٢٠٠٩.

١٢٠ص؛ ٢٠سم. - (نظم الحكم)

تدمك ٩ ٧١ ٥١٣٠ ٩٧٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٤١٤/ ٢٠٠٩

977-5130-71-9

ديوى ٣٢١

مصر - أفغانستان - الصومال

الدولة المدنية.. وشعار الخلافة

استحضر الضوء يختفِ الظلام من تلقاء نفسه

أراسيموس

بداية

والحقيقة إأنا وإن تابعنا تاريخ مصر الحديثة بدقة فسنكتشف أنها قد احتضنت فكرة الدولة المدنية لكنها طعمتها ولأمد طويل، وربما حتى الآن – فى بعض الأحيان– بلفحات من فكر أو من ممارسات الدولة الدينية. فلأمد طويل كانت المحاكم الشرعية التى تستند إلى تطبيق بعض مدارس الفقه إلى جانب المحاكم المدنية التى تستمد جوهر فكرها من القانون الوضعى المنتسب إلى الفقه القانونى الغربى.

وفى البداية كان القضاء الشرعى مقسما وفق المذاهب الأربعة الأكثر شهرة، فمدارس الفقه الإسلامى كثيرة وربما هى بلا حصر دقيق. لكن البعض رأى أن يكتفى بالمذاهب الأكثر شهرة أو الأكثر اتباعاً. فكان اختيار مذاهب الشافعى، وأبى حنيفة، وأحمد بن

حنبل- ومالك. وكان لكل مذهب قاضيه يذهب إليه الشاكى المنتسب لذات مذهبه ويدفع المعلوم وينال حكما هو أقرب إلى الفتوى. ولقد يكون المشكو فى حقه من أتباع مذهب آخر فيذهب إلى قاضيه أو لعله يجد مهربا عند قاضيه إن كان ثمة خلاف بين المذهبين حول هذه القضية، ورويدا رويدا ازداد الأمر تعقيدا فثمة تطورات تقع على كل مذهب، الشافعى كان له مذهب بغدادى (عندما كان مقيما فى بغداد) فإذ جاء إلى مصر غير كثيرا من معطيات مذهبه فيقع القاضى الشافعى فى حيرة، كما أن لكل مذهب فقهاء انتسبوا إليه على مر السنين، بعضهم جدد فى المذهب واختلفوا مع بعضهم البعض فى فهم مذهب إمامهم فكان كل منهم يقضى وفق رؤيته هو لمذهب الإمام فيختلف مع الآخر الذى ينتسب إلى ذات المذهب إذ يفسره أو يفهمه بمنطق آخر أو برؤية أخرى.

ولأن الحديث الشريف يقول «إن الله يبعث على رأس كل مائة من السنين لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها» فإن عملية التجديد هذه تأتى عبر سعة أفق ورحابة فهم وصدر المجدد ، ولقد يأتى التجديد فى الفقة إجباريا إذ يتصادم القول الفقهى مع الواقع تصادما يفقأ العين فيكون لا مناص من الانحناء أمام الواقع. والأمر فى بدايته ونهايته اجتهاد بشرى يبدأ بفكرة أو فقه واحد من الأئمة ثم يتواصل الاجتهاد فقيها بعد فقيه وشيخا بعد شيخ، فالفقه إذن فعل إنسانى ومن ثم فهو يقبل احتمال الصواب والخطأ.

وهكذا أقبلت المحاكم المدنية لتجد نفسها فى مواجهة هذا الوضع

وتطلب الأمر زمنا وجهدا فى إقامة قاض واحد للشرع يستند إلى قرار حكومى بتعيينه وتقوم محكمة شرعية لتفصل فيما يقدم إليها من دعاوى متعلقة بالأحوال الشخصية (من زواج وطلاق ومواريث وغيرها) ويكون اختصاص القضايا مدنية وجنائية للقضاء المدنى. لكن القضاة الشرعيين اختلفت أحكامهم باختلاف الفقه فتقرر النص على أنه فى حالة وقوع خلاف بين الأئمة الأربعة يؤخذ بأرجح الأقوال فى مذهب الإمام أبى حنيفة ولعل هذا النص يثير الدهشة فالمصريون فى أغلبهم شوافع أى ينتمون للمذهب الإمام الشافعى لكنهم وفق الميراث العثمانى يتزوجون ويتحاكمون على مذهب الإمام أبى حنيفة، أما عبارة أرجح الأقوال فهى مطاطة ولا تصلح كنص ملزم فلقد يختلف النظر إلى ما هو أرجح الأقوال وما غير ذلك.

ثم ألغيت المحاكم الشرعية وتوحد الوعاء القانونى فى إطار المحاكم المدنية التى تتحاكم إلى قانون للأحوال الشخصية.

كذلك فإن الدولة المصرية المدنية قد احتضنت نسقين من التعليم. التعليم المدنى الذى وضع لبناته الأولى الأب الروحى للمجتمع المدنى والليبرالية المصرية الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ثم تمدد وتطور إلى ما نحن فيه الآن. أما النسق الآخر فهو التعليم الدينى. والذى كانت بدايته فى أروقة الأزهر الشريف ثم تأقلم فى تجاوره مع التعليم المدنى وتطور إلى ما نحن فيه.

ومن ثم تواجد فى مصر جماعتان من المثقفين جماعة تخرجت فى قنوات التعليم المدنى وأخرى فى قنوات التعليم الأزهرى..ورغم

محاولة ناصرية للتقريب بين القناتين أو حتى فى تهجين كل منهما بنفحة من الآخرى. إلا أن المثقف الدينى يظل متمايزا عن المثقف المدنى وان كان التأسلم السياسى أى اتخاذ الدين شعارا وستارا لفعل سياسى يحاول خلط الأوراق عبر نفوذه بين طلاب الجامعات المدنية الذين يتخرجون فيخلقون قناة وإن كانت محدودة للتأسلم، وفى نفس الوقت يكون تيار التجديد الدينى وسط المثقفين الأزهريين قناة لدعم الدولة المدنية.

كما أن بعض الممارسات الحكومية تضعف من مكانة أو هيبة الدولة المدنية بلجوء الحكومة أو بعض رجالها إلى المؤسسة الدينية للاستعانة بها فى تمرير أو تبرير بعض النصوص القانونية. والمشكلة هنا هو أن ذلك التوجه يضرب فكرة الفصل بين السلطات التى تقوم عليها الدولة المدنية فى الصميم، فالمؤسسة الدينية الرسمية بكل فروعها هى جزء من السلطة التنفيذية فقياداتها ورجالها يعينون بمعرفة السلطة التنفيذية ويتقاضون رواتبهم منها وتمتلك عليهم حق التعيين وحق العزل، وحق المنع والمنح. فضلا عن أن كثيرا من القضايا التى تحال إليهم مثل زراعة الأعضاء – والهندسة الوراثية– والموقف من انتشار عدوى أنفلونزا الخنازير وغيرها هى جميعا بعيدة تماما عن تخصصهم العلمى وبعيدة تماما عن اهتمامتهم ولا شأن لهم بها لأنهم لا يعرفون أى شىء يتعلق بها، ولأنها – ثانيا – قضايا مستحدثة لم ترد حلول لها فى أى كتاب من الفقة القديم أو الحديث. ثم أن إحالة هذه المسألة أو تلك من جانب الحكومة أو رئيس

مجلس الشعب إلى شيخ الأزهر أو المفتى أو أية هيئة دينية رسمية أو غير رسمية يعنى التنازل التام عن حق التشريع فيها أو حتى حق البت التنفيذى فيها لأن الموقف الدينى لا ينصبّ فى اتجاه الرأى بصحة أو عدم صحة القضية وإنما ينصب باتجاه حرام أو حلال، فهل يجرؤ مجلس الشعب أو الحكومة على إصدار قانون أو قرار قالت المؤسسة الدينية أو أحد ممثليها إنه حرام؟

ألم نقل إن الدولة المدنية المصرية تتنازل تحت ضغط التأسلم عن أبسط قواعد قيامها؟

لكن الأمر أعمق من ذلك . فالمسألة ليست قرارا باللجوء إلى المؤسسة الدينية للاحتماء بها بل هى تعبير عن خلل فى البنية الأساسية للدولة المدنية فى صورتها الراهنة، بما يلجئها إلى الاستقواء بالمؤسسة الدينية فتكاد أن تفعل ما تقول برفضه هى والدستور والقانون من عدم جواز استخدام الدين فى الفعل السياسى أو الساحة السياسية، كما أن هذا اللجوء إن جاء فى ساحة الفعل السياسى المباشر لا يكون فى صالح هيبة المؤسسة الدينية التى قد يطلب إليها أن تؤيد أو تستنكر موقفا مختلفاً عليه بين أطراف الفعل السياسى فتبدو فى نظر البعض وكأنها تستخدم لصالح الطرف الحكومى فى الصراع السياسى.

* * *

يارب يا متجلى. اهزم العثمالى

هذا الشعار القديم لعله يلخص علاقة مصر بفكرة الخلافة،

فالخلافة العثمانية – كما سنرى فيما بعد– كانت غولا متوحشا أنشب أظفاره فى أعناق الشعب المصرى عسفا وظلما ونهبا وقتلا كل ذلك تحت رايات زائفة يقول أصحابها إنها راية الخلافة الإسلامية. وما كان الإسلام أو أى دين آخر ليقبل بذلك ولا بذرة واحدة منه.

يا عزيز يا عزيز – كبه تاخد الانجليز

ومع الاحتلال الانجليزى ارتفع هذا الشعار رفضا للاحتلال الأجنبى وسعيا وراء استقلال حقيقى يعيد مصر أرضا ونيلا ووديا وتاريخا وحاضرا ومستقبلا للمصريين. وتولد من هذين النداءين شعار مصر للمصريين.

خرابا خرابا ديار العدليين

ومصر للمصريين لا تأتى إلا عبر مصر المستقلة وإذ تعثرت وحدة الوفد المصرى بمكوناته المتباينة خلال إقامته فى باريس سعيا للحصول على تأييد دولى لاستقلال مصر، وإذا حاول كبار الملاك الضغط على سعد زغلول كى يقبل باللجوء إلى السلطان فؤاد ليطلب أن يتفاوض مع المحتل باسم مصر فسماهم سعد زغلول جماعة عبيد السلطان فغادروه عائدين إلى مصر محاولين البحث عن مسلك نحو السلطان ونحو القبول بنصف استقلال كانت المظاهرات التى هتفت بهذا الشعار:

إلى أين تمضى بالأمانة يا سعد

فتجنى على شعب عليك له العهد

رويدك لا تعبـــــــــث بآمال أمة

شغوف بالاستقـــلال يهتاجها المجد

فيا سعد حاذر أن تضل طريقهـا

وإلا فلا ســعــد هــنــاك ولا وفــد

كان سعد يتردد إزاء تصريح ٢٢ فبراير وصرح بما يوحى بقبوله به فصاح فى وجهه فرح أنطون فى هذه الأبيات التى نشرها فى جريدة النظام والتى كان مفترضا أنها جريدة وفدية.. ومع موجات الرفض خضع سعد ورفض الانحناء وصاح واصفا التصدع بأنه «كمن يقول أعطيتك ألفا إلا ألفا أى لا يعطيك شيئا».

خلاصة الأمر أن مصر وشعبها عاشت دوما بشكل أو بآخر وبشعار أو بآخر معركة مصر للمصريين.

* * *

وتكون بداية الهجوم على الدولة المدنية والترويج بدلا منها لشعار الخلافة عبر وجود حزب أو أحزاب على أساس دينى، والحقيقة أن إقحام الدين فى السياسة هو أقحام للمقدس الكلى الصحة فى شأن نسبى الصحة. لأن السياسة هى موقف وفعل أنسانى. وثمة قول فقهى مهم فى هذا الصدد يقول «الدين تسليم بالإيمان والرأى (السياسة) تسليم بالخصومة، فمن جعل الدين رأيا فقد جعله خصومة، ومن جعل الرأى دينا فقد جعله شريعة».

فإذا أتى حزب أو جماعة مدعيا أنه يمثل الدين المقدس فإن كل ما يقول به يكون مقدسا ومن ثم فإن كل من خالفه فى رأى أو

موقف فهو مخالف للدين.

ألم يقل الأستاذ حسن البنا فى رسالته إلى المؤتمر الخامس لجماعة الإخوان متحدثا عن برنامج الجماعة «هذا المنهاج كله من الإسلام وكل نقص منه نقص من الإسلام ذاته». نتأمل هذه العبارة الخطيرة والمثيرة للدهشة.. «كله من الإسلام» أى أن كل حرف فيه من الإسلام أى من المقدس، «وكل نقص منه» نقص من المقدس» فمن يجرؤ على نقد حرف أو رأى أو موقف، أو يجرؤ على القول بنسيان أو تعمد نسيان لموقف أو رأى فإنه يضع نفسه وبالضرورة فى موضع التناقض مع الدين أى المقدس.

ودولة العالم الثالث حيث تعيش الغالبية الغالبة من المسلمين تعيش حالة من استقواء الحكام بحكمهم، وتحكمهم فى أدوات الحكم فكيف نعطيهم مزيدا من التحكم إذ يزعمون أن قولهم أو فعلهم هو المقدس ذاته.

وهل تريدون مثالا؟ انظروا إلى حماس وإلى ما فعلت وما تفعل ليس فقط فى شعب غزة وإنما فى مجمل القضية الفلسطينية التى يجرى التضحية بها فى سبيل قيام حكومة متأسلمة على أرض خاضعة فى نهاية الأمر لسلطة الاحتلال ولا تستبقى لحماس سوى فتات سلطة. مجرد فتات.

وعلى أية حال فإن دعاة الدولة المدنية فى مصر قد حاذروا وحذروا من إقحام رجال الدين أو المدعين بذلك فى شئون إدارة الدولة المدنية، ولنبدأ بالأب الروحى للدولة المدنية المصرية الشيخ

رفاعة الطهطاوى إذ يقول فى تخليص الإبريز «لا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس هم علماء فى الدين فقط» [١] ومن ثم فهو يرى أنه لا مجال لهم فى التداخل فى شأن الدولة المدنية. بل يرى أن تداخلهم يكون ذا أثر سلبى. فهو إذ يقارن بين النظام الملكى ودعاته والجمهورى ودعاته يقول «وأنصار الملكية أكثرهم من القسوس وإتباعهم، وأكثر الحربيين (أى دعاة الحرية) من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية، والفرقة الأولى تحاول إعانة الملك والأخرى إضعافه وإعانة الرعية. ومن فريق الحريين طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة إلى ملك أصلا. ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره من بينها للحكم وهذا هو حكم الجمهورية»[٢]

وإذ نسرع إلى ولى الدين يكن وهو مثقف من أصل تركى عانى من عسف دولة الخلافة ونفى إلى منفى سيواس ثم أتى إلى مصر فارا من ظلم الخلافة الطاغية فأخذ يبشر بالحرية وبالدولة المدنية ويقول «إن العامة تحب الشىء إذا حببه إليها زعماؤها وتبغضه إذا بغضه إليها زعماؤها. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وأغلب هؤلاء لا يرغبهم فى الشورى شىء مما هم منقطعون إليه، فهم يحبون أن يظلوا متحكمين فى رقاب الرعية وأن يبقوا عيالا على الرعية، وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم. ثم إن السلطان العثمانى عبد الحميد قد اتخذ منهم شيعته ورهطه فما أقر هيبته فى القلوب ولا ابتاع له المودات إلا هذا الرهط» [٣]

ويقول «إنهم يحلون ما يريدون أن يجعلوه حلالا حتى لو خالف الشرع، ومنهم من يقول إن الربا حرام، وأوقاف الآستانة كانت تقرض الناس بالربا فتعطى الرجل قدر حاجته من القروش وتجعل الربح ثمن مصحف يشتريه المقترض ثم يهبه للولى»(٤)

وهو يواصل هجومه الحاد على من جربهم بنفسه تحت وطأة الخلافة العثمانية «لو جمعنا العمائم التى بالبلاد العثمانية وجعلنا بعضها فوق بعض لبنينا منها حصنا يعجز عن هدمه أسطول إنكلترا بأسره»(٥)

وعندما يشن بعض رجال الدين هجوما عنيفا على حقوق المرأة وتحررها مدعين أن هذا هو موقف الدين، مطالبين الحكومة بمصادرة كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»، مستخدمين بذلك ما يزعمون أنه «فتوى» إسلامية فى الضغط على الحكومة المدنية الوليدة، وعندما يكرس بعض قادة المؤسسة الدينية نفوذهم لدعم موقف الخديو فى خضوعه للاحتلال ، يكون رد حافظ إبراهيم:

كم عالم مد العلوم حبائلا
لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد فقهه
لمكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة
كالبرج ، لكن فوق تل نفاق

وعندما أعرب بعض المشايخ عن امتعاضهم من حملة جمع

تبرعات لبناء مدرسة للبنات فى بورسعيد (عام ١٩١٠) يرد عليهم حافظ فى حفل التبرعات قائلا:

ليست نساؤكم حلى وجواهرا
خوف الضياع تصان فى الإحقاق
ليست نساؤكم أثاثا يقتنى
فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها
وولاؤهن على الجمود بواقى

ويكمل شوقى مستنهضا قوى التحرر والتقدم والدفاع عن الدولة المدنية

ظلم الرجال نساءهم وتعسفوا
هل للنساء بمصر من أنصار
يا معشر الكتاب أين بلاؤكم
أين البيان وصائب الأفكار
أيهمكم عبث وليس يهمكم
بنيان أخلاق بغير جوار

وفوق هذا وذاك يكمل الأستاذ الإمام محمد عبده المعركة، ولعل الأستاذ الإمام هو أحد البناة الحقيقيين للدولة المدنية، فقد منحها عشرات من الفتاوى التى منحتها القدرة على النهوض سياسيا واجتماعيا واقتصاديا بما دفع العديد من رجال الدين المتزمتين إلى الهجوم عليه بهدف عرقلة مسيرة قيام الدولة المدنية، هاجموه وشتموه

وأصدروا عديدا من الكتب البذيئة المملوءة بالشتائم غير المهذبة لكنه صمد وواصل وكان انتقامه من هذا التخلف والبداءة هو مواصلة الإفتاء بما يعزز نهضة دولة مدنية راسخة الأركان وفيما كان الأستاذ الإمام يحتضر لخص كل معركته وكل وصيته لشعبه ووطنه فى أبيات من الشعر تقول :

ولست أبالى أن يقال محمد

أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولكنه دين أردت صلاحه

أحاذر أن تقضى عليه العمائم

* * *

لظ فى مصر

قالها المرشد العام لتلك الجماعة التى قال مؤسسها الأستاذ حسن البنا عن برنامجها «هذا المنهاج كله من الإسلام وكل نقص منه نقص من الإسلام ذاته».

والحقيقة أن المرشد الحالى لم يختلف عن المرشد الأول إلا فى نظافة التعبير.

فالجماعة التى تعتبر أن برنامجها كله من الإسلام وهو كل الإسلام تدعو لفكرة الخلافة وقال مؤسسها «إن الخلافة قد وضعت لوراثة النبوة». وهو الذى يحدد واجبات عضو الجماعة داعيا إياه إلى مناهضة أسس الدولة المدنية، القانون الوضعى والقضاء المدنى وكل ما لا يمت بصلة إلى الجماعة، فالأستاذ البنا يحدد فى كتابه

«رسالة التعاليم» واجبات الأخ المجاهد وعددها ٣٨ واجبا نقرأ كنموذج فقط الواجب ٢٥ منها الذى يأمر الأخ «أن تقاطع المحاكم الأهلية وكل قضاء غير إسلامى وأن تقاطع الأندية والصحف والجماعات والمدارس والهيئات التى تناهض فكرتك الإسلامية مقاطعة تامة» وفى البند ٣٧ يأمره «أن تتخلى عن صلتك بأية هيئة لا يكون الاتصال بها فى مصلحة فكرتك» [٦] وهجوما على القانون الوضعى وهو العمود الفقرى للدولة المدنية يقول الأستاذ عبد القادر عودة القطب الإخوانى «من الأمثلة الظاهرة على الكفر بالامتناع فى عصرنا الحالى الامتناع عن الحكم بالشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين الوضعية بدلا منها، فمن اعترض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر عليه فهو كافر قطعا»[٧] وهكذا وببساطة فإنه يكفر مجمل الدولة المدنية وقوانينها الوضعية ومحاكمها وقضاتها وكل من يتحاكمون إليها، والمثير للدهشة- بل ما هو أكثر من الدهشة- أن الأستاذ عودة كان محاميا مرموقا يترافع أمام محاكم الدولة المدنية يتحاكم إلى قوانينها الوضعية، فكيف يمكن أن يتسق الأمران معا؟

أما القطب الإخوانى د. على جريشة فإنه يحرض على الدولة المدنية ويدعو إلى «الجهاد» ضدها فيقول «ولا خلاف فى جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل الشريعة والنكوص عن الجهاد تهلكه نهى الله عنها»[٨].. وهكذا تتمدد فكرة الحزب الدينى إلى دولة الخلافة إلى تكفير الدولة المدنية والقائمين عليها والقائلين

بها ثم إلى الجهاد ضدها وأيضا «والقعود عن الجهاد تهلكه نهى الله عنها»، أرايتم من أين يأتى الإرهاب؟ .

ثم نأتى إلى سيد قطب هذا الرجل الذى مر بأطوار عديدة، فهو الذى هاجم بشدة عريضة «عنترية» أصدرتها هيئة كبار العلماء رفعتها إلى رئيس الوزراء تتحدث «عن فزع شيوخ الأزهر من الفجور والمجون ومن حفلات ماجنة خليعة يختلط فيها الرجال بالنساء إلى أندية يباح فيها القمار إلى شواطئ الصيف يخلع فيها العذار ويطغى فيها الفجار» ويقول متهكما «أهكذا أيها العلماء الأجلاء يا سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، أما وقد قدر لشفاهكم الشريفة أن تنفرج عن كلام فى المجتمع أفما كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية المتفشية فى المجتمع، وعن رأى الإسلام فى الحكم، ورأيه فى المال، ورأيه فى الفوارق الاجتماعية التى لا تطاق.. أم تسكتون عليها لأن السكوت عليها من ذهب إبريز» [٩] بل هو يهاجم كامل مؤسسة الأزهر «أما أنت أيها الأزهر فقد أضعت الدين وأفسدت الدنيا بسكوتك المريب على مفاسد المجتمع ومظالمه»[١٠]

وكان ذلك كله قبل أن ينتمى سيد قطب إلى جماعة الإخوان، أما وقد انتمى إليها فقد أصبح شخصا آخر وفكرا آخر فيكتب «وألف كتاب عن الإسلام، وألف خطبة فى مسجد أو قاعة أو ميدان وألف فيلم فى الدعاية للإسلام، وألف بعثة من الأزهر أو غير الأزهر فى كل مكان، كل ذلك لا يغنى غناء مجتمع صغير يقوم فى ركن من أركان

الأرض يعيش بمنهج الإسلام وتتمثل فيه خصائص هذا المنهج وصورة الحياة فى الإسلام» [١١] إنها ذات النظرية الطالبانية ونظرية إمارة حماس. ويتجلى سيد قطب الإخوانى فى الطبعة المعدلة من كتابه «فى ظلال القرآن» وهى التعديلات التى أدخلها على الطبعة الأولى وهو فى السجن. و التى طبعت طبعتها الجديدة والتكفيرية وهو فى السجن طبعت ويا للدهشة ووزعت وهو فى السجن وهو ما لم يحدث لأحد من سجناء الناصرية ونقرأ «أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ولو لم يصحبه شرك فى الاعتقاد بألوهيته ولو قدمت الشعائر التعبدية له وحده» [١٢] وهو يتحدث عن المجتمع المصرى قائلا «ليس هذا إسلاما وليس هؤلاء بمسلمين» وهكذا يقول عن كل مسلمى العالم ويقول «والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام ولتجعل منهم مسلمين من جديد»[١٣]. الجميع كافرون «وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة (أى عقيدته هو) ثلاثة نفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع إسلامى مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلى» [١٤] إنه الرفض الكامل للمجتمع وللدولة المدنية والمفاصلة بينهما والاستقلال عنه ثم «والذى يدرك طبيعة هذا الدين يدرك معها حتمية الانطلاق الحركى الإسلامى فى صورة الجهاد بالسيف إلى جانب الجهاد بالبيان» [١٥] وليس من الضرورى أن يكون هذا الجهاد بالسيف متكافئا أو بناء على استعداد للتكافؤ مع الخصم «فالمؤمنون أجراء عند الله وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا عملوا، وقبضوا الأجر

المعلوم. وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أى مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير»[١٦]

وهكذا يستبين الأمر. فالحزب الدينى يرفض الدولة المدنية. والدولة المدنية عنده كفر، والكفر يجاهد بالسيف والسيف حتمى حتى ولو كان المؤمنون قليلى العدد وقليلى الحيلة فهم أجراء عند الله. فتوازن القوى أو الهزيمة شأن صاحب الأمر وليس شأن الأجير.

الدولة المدنية كفر، ولهذا قال المرشد «طظ فى مصر» وقال إنه يرحب بأن يحكم مصر ماليزى إذا أقام حكم الإسلام، إنه الرفض ليس فقط للدولة المدنية وإنما لفكرة الوطن فى ذاتها، إنه وهم الخلافة التى يحلق فى خيالاتهم وتصرفاتهم وأفعالهم منذ قامت جماعتهم وحتى الآن، والخلافة تعنى أن تسعى لقيام خليفة يحكم المسلمين فى كل ديار الإسلام وحيث يوجد كل مسلم والخليفة هو «وارث للنبوة فهو مطاع مهما قال ومهما فعل، فمتى وقعت له البيعة لا يجوز نقضها فهى بيعة فى المشنط والمكره، وإذا كان الأستاذ عمر التلمسانى أحد المرشدين العامين للجماعة قد نصح عضو الجماعة «كن بين يدى مرشدك كالميت بين يدى مغسله» وإذا كان يزهو بأنه كان كذلك، وإذا كان أحد القادة الإخوانيين قال فى أحد كتبه عن حسن البنا «لم أقدر النبوة حق قدرها إلا لما رأيت هذا الرجل، وجلست إليه ولازمته وعاشرته» [١٧]وعندما يعود الأستاذ البنا من الحج يكتب أحد أتباعه «عاد الرجل الذى تلتقى عند ساحته آمال الأمة الإسلامية وآلامها، وترجو على يديه استرداد عزها ومجدها،

وترنو إليه متحفزة أبصارها ، وتسلمه زمامها، وتسلم له قيادها. نعم عاد الرجل الذى تعلق عليه الأمة كل أمل فى انتشالها من وهدة العبودية ولم يبق فى كنانتها إلا هو، نعم عاد صانع الرجال ومدرب الأبطال، الداعى إلى الرشاد والهادى إلى السداد، رافع المشعل وارد المنهل، نعم عاد أستاذنا الأجل وقائدنا المطاع» [١٨] تصوروا أن هذا الصانع للرجال والمدرب للأبطال والداعى إلى الرشاد والهادى إلى السداد ورافع المشعل الأستاذ الأجل والقائد المطاع. أو هذا الذى لم يعرف الأخ الإخوانى قدر النبوة إلا عندما رأى هذا الرجل، تصوروا لو أنه أصبح حاكما أو أميرا أو خليفة فماذا يكون من أمر الديمقراطية أو الحريات العامة أو حقوق الشعب إذا رأى فضيلته انتهاكها؟

ولأن جوهر فكرة الخلافة هو امتداد سلطانها حيث يوجد بلد مسلم أو حتى جماعة مسلمة فمن ثم كان التنظيم الدولى للإخوان، الذى يزهون به أحيانا وينكرونه فى أحيان أخرى، لكنه رغم محاولات الإنكار موجود ومنصوص عليه فى لائحة النظام الأساسى لجماعة الإخوان والتى صدرت فى صورتها الجديدة ١٩٨٢ وتنص ديباجتها «الإخوان المسلمون فى كل مكان جماعة واحدة تؤلف بينها الدعوة ويجمعها النظام الأساسى» وتنص مادتها الثانية على أن «الإخوان المسلمون هيئة إسلامية جامعة تعمل على إقامة دين الله فى الأرض.. وتحرير الوطن الإسلامى (لاحظ أن تعبير الوطن يعنى كل مسلمى العالم) بكل أجزائه من كل سلطان غير إسلامى والسعى لتجميع

المسلمين حتى يصيروا أمة واحدة»، كما تنص اللائحة على كيفية تشكيل مكتب الإرشاد (مادة ٤٩) من ثلاثة عشر عضوا عدا المرشد ثمانية من مصر وخمسة من خارج مصر.

إن جوهر فكرة التنظيم الدولى تقوم على أساس أن تحقيق هدف الجماعة يأتى بتحقيق الخلافة.

ولقد يقول البعض وهم يقولون فعلا لماذا تنكرون علينا الحق فى وجود حزب دينى بينما يوجد فى أوروبا حزب يسمى بالديمقراطى مسيحى أو ما إلى ذلك، والفارق هو أن مثل هذا الحزب لا يدعو لقيام دولة دينية مسيحية ولا إلى عودة سلطة الكنيسة، وإنما يدعو إلى احترام القيم المسيحية، واحترام القيم الدينية هنا أو هناك أمر محمود ومطلوب ولكن قيام دولة دينية أمر آخر. وعلى أية حال فإن واحدا من المؤسسين لفكر الدولة المدنية وهو أحمد لطفى السيد قد ناقش هذا الأمر قائلا : لا أنكر أن بعض الساسة الأوربيين قد يتخذون الدين وسيلة للحصول على أمانٍ سياسية، وذلك رأى باطل وطريق خادع فلا يحسن بأى من المشتغلين بالسياسة عندنا أن يجاريهم فى هذا السبيل لأن الباطل فى يد القوى سلاح ردىء وغير منتج ، ولكنه فى يد الضعف سلاح سمج وخطر ويوشك أن يرتد إلى حامله فيقتله» (١٩).

* * *

وكما جاءت الخلافة فى آخر أطوارها وأكثرها بشاعة من تركيا، هزمت أيضا- وهذه سنة الحياة- فى تركيا على يدى حركة كمال

أتاتورك. وكانت هذه الهزيمة بداية لانتصار ساحق للدولة المدنية، لكن التأسلم لا ينتهى، ويظل يحلم بوهم الخلافة، ويبقى الرد الحاسم الفاصل من أحمد شوقى:

مضت الخلافة والإمام فهل مضى
ما كان بين الله والعبّاد
والله ما نسى الشهادة حاضر
فى المسلمين ولا تردد شادى
والصوم باق والصلاة مقامة
والحج ينشد فى عناق الحادى

إنه الرد بأنفاس شعرية، أما الرد الحقيقى والعملى فلا يكون إلا بتعزيز أواصر الدولة المدنية، وتأكيد حريتها وديمقراطيتها وإقرار حقوق المواطنة المتكافئة فى كل ربوعها ومناحى الحياة فيها لتصبح مصر حقا للمصريين أقصد لكل المصريين، وهذا هو الضمان التام لانتصار الدولة المدنية على التأسلم وأوهامه.

ونعود لنستعيد قول أراسيموس : «استحضر الضوء يختفِ الظلام من تلقاء نفسه.

القاهرة اغسطس ٢٠٠٩

الهوامش

(١) رفاعة الطهطاوى - تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - ص ٢٠٨.
(٢) المرجع السابق ص ١٤٨.
(٣) ولى الدين يكن - المعلوم والمجهول- الجزء ٢ ص ١٥٦.
(٤) ولى الدين يكن- الصحائف السود- ص٢٣.
(٥) ولى الدين يكن - التجارب- ص٣١.
(٦) حسن البنا- رسالة التعاليم- ص١٢.
(٧) عبد القادر عودة - التشريع الجنائى الإسلامى- الجزء ٢ - ص٧١٠.
(٨) د. على جريشة - أصول الشريعة الإسلامية - ص ٤٩.
(٩) سيد قطب- معركة الإسلام والرأسمالية- ص٧٥.
(١٠) سيد قطب- مقال فى مجلة الفكر الجديد، ١٥ يناير ١٩٤٨.
(١١) سيد قطب - الإسلام ومشكلات الحضارة- ص ١٨٠.
(١٢) سيد قطب، فى ظلال القرآن، جزء ٧ ص٩٣٨.
(١٣) سيد قطب- معالم فى الطريق- ص ١٣٤.
(١٤) المرجع السابق ص ١١٦.
(١٥) المرجع السابق- ص١٦٢.
(١٦) المرجع السابق- ص ١٧٥.
(١٧) محمود عبد الحليم - الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ -جزء ١ ص٥٤.
(١٨) الإخوان المسلمون (الأسبوعية) ١٣ محرم ١٣٦٥ هـ - ٧ ديسمبر ١٩٤٦- مقال بقلم «أمين».
(١٩) الجريدة- ٢٢ أغسطس ١٩٠٨.

ثـــم...

وعلى مدى تاريخ طويل خاضت الدولة المدنية المسلحة بالعقل والعلم والوطنية معارك ضارية. وهى معارك تشابك فيها ما هو دينى مع ما هو شبيه بالدين، لكنه ليس بالضرورة صحيح الدين ، مع ما هو وطنى أو شبيه بالوطنية لكنه ليس بالضرورة صحيح الوطنية، وبين هذا وذاك كان هناك العقل والعلم والفكر الحر والليبرالية.

وعلى مدى عقود كان الصراع مريراً ولم يزل. واتخذ الصراع قنوات شتى فكرية أو دموية أو هما معاً، ونشأ من هذا التزاوج ما يمكن تسميته بالفكر المسلح. أن تأتى فكرة متأسلمة خالية من العقل والمنطق والمصلحة لكنها مدججة بالسلاح فإما أن تقبلها وإما أن تذبح كافراً ومرتداً ولأن هذه الأفكار المتأسلمة خالية من أى منطق فأنت لا تستطيع مناقشتها بالمنطق.

فالحروف الأولى من علم المنطق يقول «من غير المنطقى أن تستخدم المنطق لمناقشة قضايا غير منطقية»، وإذ يفتقد المنطق ويفتقد معه العقل يتسيد السلاح المتوحش. ويزداد توحشا كلما ارتدى ثيابا متأسلمة. وأخطر هذه الثياب هو الخلافة أو الإمامة.

لكن التجارب تختلف.

فالتجربة المصرية عاشت عقوداً تتخذ من الوطنية ومن عشق المصريين لوطنهم سلاحا مهما واستخدمت معه العقل والعلم والليبرالية. وألحت فى المواجهات الفكرية والسياسية، ألحت وتواصل إلحاحها حتى يمكن القول بأنها حققت انتصاراً أو شبه انتصار.

وبرغم مماحكات مستمرة حتى الآن.. إلا أن فكرة الدولة المدنية ترسخت فى الوجدان المصرى بحيث تصبح فكرة الخلافة نوعا من الفلكور غير المتخيل. إنه الإلحاح فى استحضار الضوء الذى حين يحضر يختفى الظلام من تلقاء نفسه.

لكن معارك أخرى لم تزل مشتعلة ولم يزل الضوء مستعصيا على الحضور، ومن ثم لم يزل التأسلم متسيدا بسلاحه ووحشيته محاولاً أن يفرض ما لا يمكن افتراضه.

وهكذا سنحاول أن ندرس عدة حالات..

مصر التى انتصرت بقدر أو بآخر.

وأفغانستان والصومال حيث الثعابين تتوالد ليصارع بعضها البعض فيختفى مع صراعها المجتمع المدنى والقوى السياسية المدنية ومعهما يختفى العقل والعلم والليبرالية.

(١) مصـــر

إن الأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب»

رفاعة الطهطاوى

هـو شعب غريب ذلك الشـعب المصرى، تقلب صفحات التاريخ فتجده أحيانا مغتربا حتى عن بلده ثم تجده ملء السمع والبصر، أو تجده نائما أو متناوماً أو صارخاً، قد يتجاهله الآخرون وقد ينكره بعض أبنائه، وقد تتململ بعض مكوناته لكنه يبقى دوماً قادراً على أن يتآلف كلما أراد.

ولقد شعرت كثيرا بالملل وربما بالغيظ وأنا أطالع كتابات الجبرتى وابن إياس فأجدهما ينكران مصرية المصريين فالمماليك الأغراب المتسلطون هم الأمراء «المصرلية» بينما المصريون يطلق عليهم مسميات غريبة «الذعر» «العوام» «الجعيدية» وفى أفضل الأحوال يسمون أبناء الحارات أو «الفلاحين» [١]. فكيف كان ذلك؟

وحتى بعد أن صاح رفاعة الطهطاوى صيحته المصرية وحاول

تعليم المصريين أن «حب الوطن من الإيمان» وهو ما سنتحدث عنه لاحقا، وفيما تتوقد إرهاصات ثورة المصريين العرابية وتتوقد مصرية المصريين يكتب أديب اسحق فى مقال بعنوان «الشرقيون فى الشرق» «لو بحثوا عن الأصول لما رأوا فى أى من البلاد الشرقية فئة من السكان تصح لها دعوى الوطنية الأصلية، وعلى سبيل المثال مصر. فنقول ليس فى مصر من لا يخاف التكذيب إذا ادعى أنه من بقية البطالمة، وعلى فرض أنه ادعى ذلك فإنه يثبت لنفسه الأصل اليونانى لا المصرى. وأن هذا القطر الذى ملكه البطالمة والرومان والهكسوس واليونان والفرس والحبشة والمسلمون العرب ثم الترك والإفرنج، وتوالت عليه غارات القبائل المتنوعة والشعوب المختلفة لا يستطيع الانتماء إلى فريق منهم دون الآخر لما وقع فيه من اختلاط الإنسان وامتزاج الأصول وتعذر التفريق بين الدخيل والأصيل»[٢] ولقد يتصور البعض أن هذه الكتابة إنما تأتى من شامى حديث الوفود إلى مصر أو ينظر إليها بمنظار أجنبى. لكن هذا التصور يرد عليه بأن صحفيا آخر أتى فى ذات الوقت من الشام أيضا هو سليم خليل نقاش. قد ألف موسوعة من ستة أجزاء بعنوان «مصر للمصريين».

الأمر إذن متعلق بوجهة نظر فردية لعلها لم تدرك عمق مصرية المصريين وأن هذه الأرض المسماه مصر هى معدة هائلة تهضم كل ما يفد إليها من حضارات وشعوب وغزاة وضيوف، تهضمهم ثم تتمثلهم ثم تفرز منهم جميعا نسيجا مصريا خالصا، تتألق فيه

الفرعونية بجوار الرومانية واليونانية امتداداً حتى العرب يتألق كل خيط بجوار الآخر لكنك لا تستطيع أن تفصله عن الآخر ولا بمشرط الجراح الماهر. إنه نسيج محكم ومتداخل ولا يمكن فرز خيط منه عن الآخر، بل ولا يمكن تمييز أحد المكونات عن بقية الجسد.

لكن المشكلة أتت - ربما- من إقحام الدين فى الأمر، فالبعض وجد أن الخلافة تتناقض مع الوطنية وأن العثمانيين هم رسل هذه الخلافة وأن الولاء لهم هو التزام دينى. ويصرخ رفاعة «حب الوطن من الإيمان» فيرد عليه الشيخ عبد العزيز جاويش وبعد عقود عديدة وبصوت أعلى «لا وطنية فى الإسلام» و«إضاعة الخلافة إضاعة للذات».

وهكذا تبدت فكرة الخلافة العثمانية فى نظر البعض فرضا دينيا لا فكاك منه.. ومن ثم يتعين أن تتلاشى مصرية مصر.

ولعل ما يثير الدهشة أن البعض قد انبهر بالتجبر العثمانى واعتبره رمزاً من رموز قوة الإسلام والمسلمين..

ويورد محمد فريد بانبهار وافتخار نصوصا يعتبرها رمزا مبهرا لقوة دولة الخلافة. ونقرأ فى رسالة: من السلطان سليمان إلى ملك فرنسا فى ٦ ديسمبر ١٥٢٥م «الله - العلى- المعطى- المغنى- المعنى. بعناية معزة عزة الله جلت قدرته، وعلت كلمته، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء، وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى صلى الله عليهم وسلم الكثير البركات، وبمؤازرة قدس أرواح الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، رضوان الله عليهم أجمعين وجميع أولياء الله.

أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين ، متوج الملوك ، ظل الله

فى الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والروملى، وقرمان الروم وولاية ذى القدرية وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام ومصر ومكة والمدينة وجميع ديار العرب واليمن وممالك كثيرة أيضا التى فتحها آبائى الكرام وأجدادى العظام بقوتهم القاهرة، أنار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتى بسيف الظفر أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان» (٣)

والمثير للدهشة هو أن محمد فريد الذى أبدى انبهارا شديدا بعظمة الخلافة العثمانية ووجوب الولاء لها هو ذاته الذى قاتل بعد وقت وجيز دفاعا عن شعار «مصر للمصريين». بما يؤكد أن هذا الانبهار كان نوعا من الانحياز السياسى للعثمانيين خصوم الاحتلال البريطانى لمصر، مانحا لنفسه ولغيره الأمل فى أن هذه القوة الطاغية ستقف مع مصر لتحريرها من البريطانيين.. وعندما فقد الأمل فيهم فقد الانبهار بقوتهم والولاء لهم.

ولكن يتعين أيضا أن نشير إلى أن هذا الانبهار بالتجبر العثمانى والولاء له انعكس مصريا أيضا فإذا بنا نجد مفردات مشابهة تستخدم فى مديح الخديو المصرى

فنقرأ فى «تقريظ» الجزء الأول من «الخطط التوفيقية» «الحضرة المهيبة الخديوية، والطلعة الداورية التوفيقية، حضرة سيدنا ومولانا الذى عم الأنام إحسانه وشملهم جوده وامتنانه، محيى رفات المكارم ومشيد أركان المفاخر على مكين أساسها:

سيـد ملأ القلوب ابتهاجـا

ولمن حـل فى حـمـاه مـجـيـر

وسع النـاس حلمه وهـو سيف

فى حـدود الـله مـا من غـيـور

وأنـام الأنـام فى ظـل أمن

بـحـمـاه وسـيـفه مـشـهـور

هـو شمس الوجود لولاه مـا أزهر

بـدر واسـتـفـاض الـنـور

الشهم الذى اقتاد المعالى بهمته، والمهيب الذى عنت جباه الجبابرة لهيبته، ذو الجناب المجيد.. لازالت ألوية العز خافقة على هامه» (٤). فإذا سألنا من هو هذا «الشهم الذى اقتاد المعالى بهمته والمهيب الذى عنت جباه الجبابرة لهيبته اكتشفنا أنه توفيق الذى استقدم الاحتلال الانجليزى لحمايته من الثورة العرابية والذى ظل خادما مطيعا للاحتلال.

إنه ما ترسب فى الذهن إذ يقتدى بالنفاق العثمانى الذى يمزج وعن عمد بين الإيمان الدينى والولاء المطلق للحاكم أيا كان هذا الحاكم فإذا تولى هذا الحاكم موقع الخلافة، وأصبح خاقان البرين والبحرين وحامى حمى الإسلام والمسلمين، ومن ثم فهو الولاء والتابعية المطلقة.

ولكن كيف بدأ الأمر؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه.

ولنبدأ بالتعريف القاموسى «الخلافة : هى الإمامة، والخليفة هو المستخلف والسلطان الأعظم»[٥] والتعريف الأكثر تداولا «الخلافة هى رئاسة عامة للمسلمين فى كل الدنيا» [٦]

وقد ثارت مسألة الخلافة فور وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتطلع آل بيته لتولية على بن أبى طالب فخشى عمر بن الخطاب من أن يتحول ذلك إلى تقليد مستمر فقال لابن عباس «إن قومكم كرهوا أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتذهبوا فى السماء شمخا بذخا»[٧]

ولعل هذا الموقف ظل عالقا فى أذهان وأوجاع شيعة على حتى الآن، الأمر الذى تجلى فى النزاع الطائفى فى عراق ما بعد الغزو الأمريكى حيث قتل الشيعة كل من يسمى «عمر» انتقاما من عمر بن الخطاب. ولا يخفى كتاب الشيعة ومفكريهم عداء ضاريا لابن الخطاب، ونقرأ «لم يكن عمر بن الخطاب ضعيف السجية، إنه كريم عفيف بين الرجال، ولكن منهجية قبلية نائمة فى بطانة نفسه ما سمحت له ولا قبلت أن يتقدم عليه وعلى أمثاله من وجهاء الجزيرة فتى لايزال أمرد. لقد كان حس ابن الخطاب بمركز الزعامة أرجح من حسه بقيمة الرسالة. إن هناك خبيئة من الماضى الوخيم تعشش فى ضلوعه، إنها الأموية فيه ضد الطالبية الهاشمية (أى ضد بنى طالب وبنى هاشم » [٨] ثم «ولقد وظف ابن الخطاب اجتماع سقيفة بنى ساعدة ليبعد عليا عن حقيقته وحقوقيته فى الإمارة وإحلال أبى بكر فيها كأنما الرضوخ لمشيئة النبى هو الخطأ والوقوع فى المعصية هو الصواب» [٩]

بل إن الشيعة كما يقول أهل السنة قد أضافوا إلى خطبة الرسول فى حجة الوداع عبارات تؤكد أحقية على من الخلافة «على منى وأنا من على، من كنت مولاه فهذا على مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، إنى مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى، كتاب الله وعترتى أهل بيتى» ثم نقرأ تعليقا على هذه الإضافات «أن الوصية مدقوقة كالوشم على جبين على، لا التاريخ عمى ولا أى رجل كريم من رجالات ذلك العصر كان يعمى عن قراءة الحقيقة، لكن سياسات الزعماء المتشربين روح القبلية هى التى عميت»(١٠)

وأتى أبو بكر ولعله بفطنته وجد أنه من الضرورى أن يضع حدا فاصلا بين ولايته كشخص وبين الرسول الذى كان يوحى إليه فوقف خطيبا «أما والله ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامى هذا كارها ولوددت أن فيكم من يكفينى»

ثم سأل «اتظنونى أنى أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ إذن لا أقوم بها، إن رسول الله كان يعصم بالوحى وكان معه ملك، وإن لى شيطانا يعترينى، ألا فراعونى، وإن زغت فقومونى»

الأصل إذن أن الوحى قد انقطع، وأصبح الحكم مسألة دنيوية والقرار إنسانى يحتمل الخطأ والصواب. لكن الأمر صار على غير ذلك، وتحولت الخلافة إلى نزاع سالت فيه أنهار من الدماء، وتحول الصراع حولها إلى حروب قام كل طرف فيها بتكفير الآخر. واختلف الخلفاء كل حسب شخصه وطبيعته وتكوينه الأخلاقى. ويلخص

الخليفة عبد الملك بن مروان (٧٣هـ) فى خطبة له يوم توليه «أيها الناس لست بالخليفة المستضعف (عثمان) ولا بالخليفة المداهن(معاوية) ولا بالخليْفة المأفون (يزيد) ألا إنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم، والله لا يفعلن أحد فعلة إلا وجعلتها فى عنقه، والله لا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا وضربت عنقه»[١١]

وقد كان .. فقد تحول الخلفاء إلى متجبرين، وتحولت الإمامة إلى طغيان وما كانت كذلك لا على زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولا على زمن الخلفاء الراشدين.

ولأن هذا التجبر قد امتزج بمزاعم تقول إن الخليفة مستخلف من الله فى الأرض وأنه يتحدث باسم السماء فقد أصبح هذا التجبر مضاعفا أضعافا كثيرة، وتكاثر مثقفو هذا الزمان من فقهاء ومتفيهقين وشعراء وكتاب فى تمجيد الخليفة وتبرير تسلطه، وإذ نقلب فى كتب التراث نجد ما يثير الدهشة والحسرة. ونقرأ لأبى بكر الطرطوشى «إن الله سبحانه وتعالى جبل الخلق على عدم الإنصاف فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر، ولم يستقر لهم معاش، ومن الحكم التى وردت فى إقامة السلطان أنه بذاته من حجج الله على وجوده سبحانه، ومن علاماته على توحيده. إن العالم بأسره فى سلطان الله، كالبلد فى يد سلطان الأرض. وإذا كان السلطان قاهرا للرعية كانت المنفعة به عامة والأسواق عامرة والأموال محروسة» [١٢]

ونتوقف لنتأمل أحد نتائج فكرة الخلافة الناطقة باسم السماء..

* فالبلد فى يد سلطان قاهر هو دليل وحجة على وجوده سبحانه.

* وأنه إذا كان السلطان قاهراً للرعية كانت المنفعة به عامة.

أما الإمام الموارى فيقول «إن أهل الرأى متى عقدوا البيعة للإمام لا يجوز لمخلوق نقضها لأن الرعية عليها بموجب هذه البيعة الطاعة والنصر للإمام ما وسعتهم الطاعة، ولا يحل لهم القيام عليه بحال من الأحوال» (١٣)

وحتى المعلم الثانى أبو نصر الفارابى يصف الخليفة قائلا: «إياه يقصد بجميع أفعال المدينة الفاضلة، ويكون إنساناً لا يرأسه إنسان أصلا، وإنما يكون قد استكمل ذاته فصار عقلا ومعقولا بالفعل وقد استكملت قوته المتخيلة غاية الكمال»(١٤)

وحتى فى مجال التشريع كان القانون الأساسى العثمانى ينص «ذات الحضرة السلطانية مقدسة وغير مسئولة أمام أحد».

وحتى المعاصرون الذين يسعون للخلافة يفسرونها كذلك فحسن البنا يقول «إن الخلافة قد وضعت لوراثة النبوة» (١٥) أما الشيخ عمر عبد الرحمن فيقول ذات الشىء تقريبا «الإمامة فى الإسلام موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا»(١٦) أما أبو الأعلى المودودى أستاذ أساتذة التأسلم فيقول «إن المطلوب للمسلمين حاكم يقوم بوظيفة خليفة الله، فليس لأحد أن يأمر وينهى من غير أن تكون له سلطة من الله»(١٧)

أما الشعراء فقد نسى الكثيرون منهم كل الحدود حتى الدينية

منها إذ انغمسوا فى نفاق الخلفاء..

* أبوك خليفة وكذاك جدك

وأنت خليفة وذاك هو الكمال

* إن الخليفة قد أبى .. وإذا أبى شيئا أبيته

* ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

فكأنما أنت النبى محمد

وكأنما أنصـــارك الأنصار

والحقيقة أن بإمكاننا أن نورد أمواجا من النفاق فى الشعر والنثر فى تمجيد الخلافة ولكن هل الخلافة أصل من أصول الإسلام حقا؟

* يقول الشهرستانى « إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد».

* ويقول الجرجانى « إن الخلافة ليست من أصول الديانات والعقائد بل هى من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين»[١٨]

* والإمام الغزالى يقول : «أن الإمامة ليست من المعتقدات»[١٩].

* ويقول أبو حفص عمر بن جميع «إن الإمامة ليست مستخرجة من الكتاب والسنة[٢٠]

* ويقول الآمدى «واعلم أن الكلام فى الإمامة ليس من أصول الديانات، بل لعمرى فإن المعرض عنها لأرجى حالا من الموغل فيها، فإنها لا تنفك عن التعصب والأهواء واثارة الفتن والشحناء»[٢١]

وقبل كل ذلك نعود إلى القرآن الكريم لنحسم الأمر.

فالكثيرون من دعاة فكرة الخلافة يستندون إلى آيات من القرآن الكريم مثل «إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما آراك الله» (النساء ١٠٥) لكن الإمام البيضاوى فى تفسيره والقرطبى يؤكدان أن كلمة «حكم» هنا كانت تعنى أن تكون «قاضيا» بين متخاصمين[٢٢]

ويؤكد أغلب الفقهاء أن كلمة الحكم إذا جاءت فى القرآن تعنى «الحكمة» و«الرأى السديد» ويستدلون على ذلك بآيات عديدة «يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبيا» (مريم ١٢) ولم يكن النبى يحيى حاكما بل منحه الله الحكمة وهو بعد صبى. وآية أخرى عن عيسى بن مريم تقول «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى» (آل عمران ٧٩) ولم يكن السيد المسيح حاكما، وآية أخرى «ولوطا آتيناه حكما وعلما» (الأنبياء ٧٤) وكذلك موسى «ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما» (القصص ١٤). وما كان لوط ولا موسى حاكمين.

وآيات أخرى عديدة تؤكد كل منها أن فكرة الحاكم المتحدث باسم السماء أو خليفة الله المستخلف فى الأرض لم ترد أصلا فى القرآن.

وكما أوردنا شعراً فى تملق الخلفاء نورد شعراً يكشف حقيقة دعوة الخلافة، فبعد أن انهارت الخلافة العثمانية على يدى كمال أتاتورك قال أحمد شوقى:

مضت الخلافة والإمام فهل مضى
ما كان بين الله والعبـــــاد

والله مانســـــى الشهادة حاضر

فى المَسلـمين ولا تـرنم شـــادى

والصوم بـاق والصلاة مقـامـــة

والحج يـنـشط فى عـنـاق الحـادى

* * *

ولكن ما حكاية الخلافة العثمانية مع مصر وكيف بدأت؟

كان سلطان هذا الزمان على مصر قنصوة الغورى، وكان يقوم كل عام بالواجب المصرى القديم برعاية الأماكن المقدسة سواء فى مكة أو المدينة أو القدس. وكتقليد قديم كان حاكم مصر ينفق ويشرف بنفسه على صناعة كسوة الكعبة وتسفيرها مع المحمل. وأتى البريد بأن الخليفة العثمانى يحشد حشوده لغزو مصر فوجه قنصوة رسالة إلى السلطان سليم الأول جاء فيها «علمنا أنك جمعت عساكرك وأنك عزمت على تسييرهم علينا فتعجبت نفسنا غاية التعجب لأن كلنا والحمد لله من سلاطين أهل الإسلام وتحت حكمنا مسلمون موحدون».

ورد السلطان فى كذب سافر «يعلم الله وكفى به شهيدا أنه لم يخطر ببالنا طمع فى أحد سلاطين المسلمين أو فى مملكته، أو رغبة فى إلحاق الضرر به فالشرع الشريف ينهى عن ذلك» (٢٣)

لكن السلطان سليم المصمم على غزو مصر كان فقط ينتظر أية فتوى ملفقة من شيوخه تبرر له غزو بلد مسلم يسمى سلطانه نفسه «خادم الحرمين الشريفين» وأخيرا وجد قاضى عسكر الأناضول

كمال زاده باشا فتوى ملفقة تلفيقا واضحا فقد استند إلى الآية الكريمة «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» وتمضى الفتوى الظاهرة التلفيق لتقول إن الأرض هى مصر أما «عبادى الصالحون» فهم بالطبع العثمانيون. ومع ذات النغمة عزف مفتى الآستانة فأصدر مفتى الأنام شيخ الإسلام فتوى بوجوب غزو مصر «لأن أهلها قطاع طرق والحرب والقتال ضدهم غزو وجهاد والمقتول فى هذه الغزوة شهيد ومجاهد». وإذ تقترب الجيوش العثمانية من مصر يرسل السلطان سليم رسالة إلى حاكم مصر وكان آنذاك طومان باى يقول فيها «إن الله قد أوحى إلى بأن أملك الأرض والبلاد من الشرق إلى الغرب كما ملكها الإسكندر ذو القرنين، وأنا خليفة الله فى أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين» وبدأ سليم الأول جرائمه فى مصر بشنق طومان باى على باب زويلة ولم يغفرها له المصريون ويظلون حتى الآن يطلقون على هذه البوابة «بوابة المتولى» وهو أحد أسماء طومان باى. وكتقليد شعبى راسخ حتى الآن فإن كل من يعبر البوابة يقرأ الفاتحة.

ويروى ابن إياس الكثير والمخيف من جرائم العثمانيين فيقول «واتجهوا إلى الطحانين فأخذوا البغال والخيول وأخذوا جمال السقايين ونهبوا كل ما فى شون القمح من غلال ثم صاروا يأخذون مواشى الفلاحين ودجاجهم وأوزهم وأغنامهم وحتى أبواب بيوتهم وخشب السقوف أخذوه» وأرسل سليم الأول واحدا من أكثر رجاله توحشا هو جان بردى الغزالى إلى الشرقية «فوصل إلى نواحى التل

والزمرونين والزنكلون ونهب ما فيها من أبقار وأغنام وأوز ودجاج وقام بأسر الصبيان وسبى البنات باعتبار أنهم أبناء كفار وراح يبيعهم فى المحروسة بأبخس الأثمان، وسارع المصريون بشرائهم من سوق العبيد والجوارى ثم يهبونهم لأهاليهم، فاشترى أحدهم بنتا بأربعة أشرفية ووهبها لأمها، وراح الصالح بالطالح، وصارت جثث المصريين مرمية من باب زويلة إلى الرميلة وإلى الصليبة فوق العشرة آلاف إنسان ثم أحرقوا جامع شيخو فاحترق الإيوان والقبة» وترك سليم الأول قبل رحيله واليا على مصر وصفه ابن إياس قائلا «كان يصبح كل صباح وهو مخمور فيحكم فى الناس بالعسف والظلم وهو سكران» ثم يلخص ابن إياس وصفه للغزو العثمانى قائلا « وأشعلوا فى مصر جمرة نار».

وهكذا كان المصريون على حق تماما عندما ظلوا يهتفون لآماد طويلة «يارب يا متجلى أهلك العثمالى».

ولم تكن هذه النزعة الاستبدادية قاصرة على التعامل العثمانى مع المصريين لكنها كانت نزعة أصيلة لصيقة بفكرة الخلافة والخليفة المتحدث باسم السماء، فحتى فى تركيا ذاتها كانت الهيئة الحاكمة كلها فى دولة الخلافة من أكبر كبرائها إلى أصغر صغير فيها كانوا جميعا وحتى الصدر الأعظم نفسه يعتبرون بحكم الواقع والقانون مجرد عبيد للسلطان ويطلق عليهم لفظ «قولار» أى العبيد ومفردها «قول» أى العبد، ويقصد به عبد السلطان، وهكذا كانوا يسمون جميعا فى الأوراق والمستندات الرسمية [٢٤]

وجيلا بعد جيل يتراكم الظلم العثمانى ليترسخ فى أعماق الشعب المصرى كراهية وسخرية ونكتا وعروضا لخيال الظل ويظل الشعار الحاكم لهذه العلاقة «يارب يا متجلى أهلك العثمالى».

ثم تتوج هذه المظالم العثمانية بخيانة الخليفة للثورة العرابية.

ومنذ البداية أدرك أحمد عرابى أن العثمانيين هم الأعداء، وأن ثورته ضد الخديو وضد التدخل الأجنبى لا تغنى عن عدائه للتسلط العثمانى. ومع ذلك فإن عرابى ومن باب المناورة حاول تحييد دولة الخلافة، ويروى المؤرخ الأكثر قبولا لدى الأكاديميين الذين حاولوا دراسة الثورة العرابية وأحداثها، ولفريد بلنت قائلاً: «أكد لى عرابى، نحن جميعا أبناء السلطان نعيش كأفراد أسرة واحدة فى بيت واحد وكل له إقليم من الإمبراطورية، أى له حجرة مستقلة فى هذا المنزل الكبير، وهى حجرة خاصة بنا نتصرف فيها وفق أرادتنا ويجب ألا نسمح لأحد بأن يعبث بسيادتنا أو بوضعنا المستقل» [٢٥] ونلاحظ أنها ذات العبارات تقريبا التى رددها مصطفى كامل على أسماع كامبل بانرمان. لكن صابونجى يبعث برسالة إلى بلنت يقول فيها بصراحة «إن العرابيين يتملقون السلطان ويعلنون ولاءهم له كخليفة للمسلمين، لكن الحقيقة هى أن السلطان لا يعنيهم فى شىء وحين يحسون بقوتهم سيعلنون إقامة حكومة جمهورية [٢٦] «بل إن صابونجى يوجه رسالة عاجلة إلى بلنت يقول فيها «كنت مع عبد الله النديم فى عربة حنطور فوق كوبرى قصر النيل وفجأة قال صائحا كم أتمنى أن ينهدم عرش الخليفة فوق رأسه».

ولابد أن انباء كهذه كانت تتسرب إلى الباب العالى، ولم يكن السلطان بحاجة إلى أنباء فقد استشعر خطورة الثورة العرابية التى وجدت أصداء لها فى كل بلاد الشام والهند وسيلان والسودان وغيرها، فيقرر السلطان إرسال حملة إلى مصر لتأديب العرابيين، وتصل الحملة إلى اللاذقية ويصف مراسل التايمز اللندنية موقف أهل الشام منها قائلا «لقد حدث هيجان شديد وأعلن السوريون مقاطعتهم للحملة وامتنعوا عن التعامل معها أو بيع أى شىء لها، وأظهروا الجفاء ناعين عليها خروجها لحرب المسلمين، وخرج عن المقاطعة أحد كبار التجار فباع للجنود العثمانيين طعاما ولحوما فلم ينته اليوم حتى أحرقت كل متاجره فى المدينة وكان الرجل يطلب النجدة كالمجنون من الأهالى فيبصقون فى وجهه ولا يتحركون لمساعدته بل يتهكمون عليه قائلين اطلب النجدة من سادتك الأتراك»[٢٧]

ويمضى الخليفة فى خيانته للثورة العرابية مقدما خدمة جليلة للإنجليز الزاحفين بجيشهم لاحتلال مصر، فتصل إلى جيش عرابى وهو فى غمرة قتاله مع الغزاة الإنجليز كميات هائلة من أعداد «الجوائب» وهى الجريدة الرسمية للخلافة التى تصدر بالعربية. وجرى وبتخطيط محكم توزيعها على الجنود فى ميادين القتال وعلى السكان فى مختلف أنحاء القطر، وتحمل «الجوائب فى صدر صفحتها الأولى «بيان نامه» ثم نص البيان الصادر عن الباب العالى «جاء فيه «بأمر سيدنا ومولانا السلطان أمير المؤمنين خليفتنا الأعظم

إشعارا لجميع المسلمين بأن الأفعال التى أجراها عرابى وأعوانه ورفقاؤه فى مصر مخالفة لإرادة الدولة العلية السلطانية، ومغايرة لصالح المسلمين، وبناء على ذلك تقرر أن عرابى وأعوانه عصاة بغاة وبهذه الصفة تجرى معاملتهم» (٢٨)

وتهزم الثورة ويتبقى فى العمق المصرى شعار «يارب يا متجلى اهزم العثمالى» ويضاف إليه شعار آخر «الولس هزم عرابى».

ويبقى أن نشير إلى مسألة مهمة لم يتوقف عندها الكثيرون فأحمد عرابى ومع بدايات تمرده أضاف إلى اسمه الحقيقى كلمة ليست موجودة فيه فأطلق على نفسه «أحمد عرابى المصرى» ربما نكاية فى كبار قادة الجيش من الشراكسة، وربما ايحاءً لجنوده وللجميع بأنه يخوض معركة مصرية، وربما ثالثا كانت هذه الإضافة أحد أسباب حنق الخلافة العثمانية عليه.

* * *

وإذ نعود إلى نقطة البداية يتعين علينا أن نتوقف عند أبينا ومعلمنا الشيخ رفاعة الطهطاوى فلعله كان يتململ ويشعر بالقرف إذ يستمع إلى الطلاب الأزهريين وهم يتلون من كتاب «حسن المحاضرة» عبارة مخيفة تقول «إن المصريين شعب كتبت عليه الذلة والمسكنة والخضوع لغيره على مر العصور» (٢٩) ويرد رفاعة فى كتابه الرائع «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» أن الأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب» (٣٠)

وفيما كان مشايخ الأزهر يسبون الفراعنة استناداً إلى ما جاء

فى القرآن الكريم بشأن فرعون موسى ، وكانوا يعتبرونهم رمزاً للكفر، وكانوا يعتبرون التماثيل الفرعونية هى لرجال ونساء وجدوا فى زمن الكفر وسخطهم الله أحجارا، فإن رفاعة الطهطاوى يكتب قائلا «أنه لم يكن بين الأمم مثل قدماء مصر فى قوتهم، فكانت خيولهم تسبق سالفا خيول سائر الممالك فى الركض فى ميادين الفخار والعلم»[٣١]، بل إن رفاعة يتجاسر فينتقد ولى النعم محمد على باشا لأنه سمح بنقل إحدى المسلات الفرعونية إلى باريس فيكتب «حيث إن مصر أخذت الآن بأسباب التمدن والتعلم على منوال أوربا ، فهى أولى وأحق بما تركه لها سلفها من أنواع الزينة والصناعة»[٣٢]

وهكذا استحق رفاعة الطهطاوى ما قيل عنه «إنه أول مؤرخ مصر عرف تاريخ مصر القديم على حقيقته فى ضوء ما وصلت إليه الكشوف الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيون فى عصره، وهو أول مؤرخ مصرى آمن بأمجاد هذا التاريخ المصرى الفرعونى القديم، ولم يلعنه، ولم ينقص من قدره»[٣٣]

وكلما قلبت فى كتب رفاعة تكشتف كنوزا من تأكيد مصرية المصريين وهو تأكيد كانت مصر فى أشد الحاجة إليه.. فنقرأ له «مصر هى أم الدنيا وكانت شوكة سلاحها قوية، وهيبتها فى القلوب متمكنة عليه» ومصر «هى أم الحضارات لم تسبقها أمة فى ميدان المدنية، ولا فى حرفة تقنين القوانين وتشريع الأحكام، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة عاقلة»[٣٤]، وأيضا «لو قسمت البركة فى كل

العالم إلى عشرة أقسام لنالت مصر منها تسعة».

ولم يكتف رفاعة بكتابة فقرات أو تحديد مواقف فى كتبه لكنه عنى بتلقين تلاميذه فنون محبة الوطن المصرى وواجبات الانتماء إليه والافتخار به. ومن الأناشيد التى كتبها وكان يقوم بتحفيظها لتلاميذه

يا صاح حب الوطن .. حليه كل فطن

فمحبة الأوطان .. من شعب الإيمان

ونشيد آخر يقول :

مال المصرى كذا دمه .. مبذول فى شرف الوطن

تفديه العين بناظرها .. والنفس بخير ذخائرها

بل هو يقوم بترجمة نشيد المارسيليز ترجمة على هواه كى يردد تلاميذه

وليس يسوغ أن نرضى رعاعا

من الأغراب يبغون ارتفاعا

وبجسارة شديدة يواصل رفاعة غرس بذور المصرية فى تربة هذا الوطن العظيم بما دفع الخديو عباس إلى إصدار قرار بمصادرة كتب رفاعة قائلا «إنها كتب تفيض بآراء تقوم على تهييج الرعية وتحضها على التمرد وعدم إطاعة الحاكم طاعة مطلقة».

ويأمر الخديو عباس بنفى رفاعة ليعمل فى بلده طوكر بالسودان بصفته خوجة أى مدرساً فى مدرسة ابتدائية.

* * *

لكن هذا المصير الذى لحق بالأب الروحى لحركة البعث المصرى

وحركة التنوير المصرية لم يوقف نمو الازهار التى غرسها رفاعة فى تربة مصر. وسريعا كانت الثورة التى قادها أحمد عرابى المصرى.

ولعله من الضرورى أن نستعيد واقعة ملفتة للنظر فعندما كان إبراهيم باشا يقود جيشه المنتصر فى حروب الشام أعجب إعجابا شديدا بشجاعة جندى مصرى فأصدر قراراً بترقيته إلى رتبة الضابط. ولما علم محمد على باشا بذلك أرسل له خطابا يقول فيه «من المعلوم يا ولدى أننا نحاذر من ترقية أبناء الفلاحين إلى رتبة الضابط تحسباً لما قد يكون عليه الأمر بعد مائة عام»[٣٥] ولكن مصر كانت فى عجلة من أمرها فبعد أقل من خمسين عاما كان ضابط فلاح يقود ثورة شعبية كرست مصرية المصريين.

وقد كان عرابى فلاحا حقا. ويصفه يلفريد بلنت قائلا «إن عرابى نموذج للقائد الفلاحى، طويل القامة، عريض المنكبين، بطىء الحركة نوعا ما، يشبه فى مشيته مشايخ البلد، أسمر الوجه إلى الحد الذى كان يجعل الأتراك ينفرون منه، ذا نظرة عميقة غريبة، قد تبدو جامدة وقد تبدو حالمة، لكنه كان مبتسما على الدوام » ثم يقول «إن أهم ما يميز عرابى هو أنه فلاح من طبقة الفلاحين، كان واحداً من هذه الطبقة وليس مجرد قائد لها، هو قطعة من الفلاحين المصريين تتصف بنفس صفاتهم»(١)، ومرة أخرى يقول بلنت «إن عرابى ليس مجرد قائد للفلاحين لكنه قطعة مجسده من الطمى الأسمر الذى يحمله النيل»[٣٦] .

ومرة ثالثة يكتب بلنت : «منذ البداية كان عرابى يطالب بالمساواة

بين الطبقات وباحترام الفلاح باعتباره العنصر الأساسى فى القومية المصرية. وكان إيمان عرابى بالفلاح هو الشىء الأساسى الذى يميزه عن بقية المنادين بالإصلاح فى عصره» ثم يقول : «إن حركة عرابى هى فى جوهرها حركة مصرية قومية وشعبية» (٣٧)

إنها حركة مصرية قومية وشعبية. لكنها وانعكاسا للواقع المصرى آنذاك كانت حركة طبقية، كانت ثورة الفلاحين المصريين الفقراء ضد كبار الملاك العقاريين من الأتراك والشراكسة وضد المرابين وكبار المستثمرين والتجار من الأجانب الذى تكاثروا فى مصر بصورة لا يصدقها عقل.

ومنذ اليوم الأول توجه عرابى إلى الشعب،. والحقيقة أن بعض كتب التاريخ تحاول أن تصور الثورة العرابية على أنها مجرد تحرك عسكرى قاده ضابط بالجيش لكن ذلك لم يكن صحيحا، ونقرأ فى المنشور الذى أصدره عرابى ووزع بكميات كبيرة على نطاق القطر «اعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل من شأنه الإجحاف بحقوقكم، والمطلوب منكم أن توقعوا على هذه الكتابة المرسلة إليكم المقصود بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد» (٣٨)

هو يتوجه إلى الشعب، ويطلب توكيلا منه فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد. وهكذا سبق عرابى بهذه الفكرة وهو ما فعله الوفد المصرى عام ١٩١٩.

والحقيقة أن مخزون الحقد الطبقى كان يتصاعد سريعا عند فئات عديدة من المصريين وعلى الأخص عند الفلاحين. فالباشوات الأتراك والشراكسة استحوذوا على مساحات هائلة من الأراضى الزراعية ثم زاحمهم أيضا كبار موظفى الدولة من المصريين الذين نالوا الكثير من إنعامات الوالى، وأيضا المرابين الذين ارتهنوا أرض صغار الفلاحين ثم انتزعوا ملكيتها بعد عجز الفلاح عن سداد الدين. ودون الدخول فى التفاصيل يكفى أن نقول إن ٣ر١٪ من الملاك كانوا يمتلكون ٤٤٪ من إجمالى المساحة المزروعة بينما كان ٣ر٨٣٪ من الملاك يمتلكون ٢١٪ [٣٩] ولكن هذه الأرقام كانت تتغير سريعا فالأرض تنسحب وبسرعة من تحت أقدام ملاكها الفقراء سدادا لديون ذات فوائد باهظة.

ويؤكد لورد دوفرين «أن الأموال المدونة فى قوائم الرهن زادت فيما بين سنتى ١٨٧٦ و١٨٨٢ من نصف مليون جنيه إلى ٧ ملايين جنيه منها ٥ ملايين تخص الفلاحين. هذا بخلاف ما عليهم من الديون للمرابين فى الأرياف والتى تبلغ نحو أربعة ملايين جنيه أخرى »[٤٠]

وفى عام ١٨٧٩ يكتب بيو مدير مصلحة الطب البيطرى مؤكدا «أن معظم الفلاحين أصبحوا لا يملكون الأرض التى يزرعونها، وأن تسعة أعشار الأراضى تابعة لطبقات أخرى»[٤١] وفى نفس العام يكتب نائب القنصل الإنجليزى فى الأقصر «أن فداحة الضرائب قد أجبرت الفلاحين على أن يبيعوا الأرض والماشية وكل شىء إلى كبار الملاك»[٤٢]

ويكتب مراسل التايمز اللندنية «أن الفلاحين لذعتهم الفاقة وأصبحوا لا يجدون من الزاد إلا ما هو دون الكفاف، ويعملون صباح مساء لملء جيوب السادة الدائنين»[٤٣]

وشعرا يكتب عبد الله النديم واصفا حال الفلاح.

أهل البنوكا والأطيان
صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
ممنعاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان [٤٤]

وهكذا استندت الثورة فى تحركها الجماهيرى على الفلاحين الفقراء، ونستمع إلى النديم مبررا ذلك «فكنت كلما نبهت عاقلا أسكتنى، فإذا ألححت عليه أنبنى وبكتنى، فلم أجد طريقا لتنبيه الوجوه والأمراء إلا بعصبية أكونها من الفقراء»[٤٥]

والحقيقة أن عرابى كان يتخذ من الجيش كمحرك لثورة فعلية يؤكد كثير من الباحثين الأجانب أنها كانت تستهدف طرد أسرة محمد على والتخلص من أسر الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية المصرية.

ونعود لبلنت مرة أخرى «لقد حبذ العرابيون النظام الجمهورى، وقد ظل محمود سامى البارودى يعدد لى مزايا إقامة حكومة جمهورية فى مصر، وقال إننا كنا نريد منذ البداية إعلان حكومة جمهورية مثل سويسرا لكننا وجدنا بعض المشايخ يرفضون هذه

الفكرة فهى جديدة على مجتمعنا لكننا نسعى قدر استطاعتنا أن نقيم قريبا حكومة جمهورية مصر»[٤٦]

وفى ١٠ مايو ١٨٨٢ أبرق ستنكس سفير فرنسا برقية إلى حكومته قائلا «إنهم حكومة ثورية، يرغبون فى خلع الخديو وعندما اقترح أحدهم على عرابى اسم حليم باشا كخديو صاح غاضبا إننا يجب أن نتخلص من أسرة محمد على كلها»[٤٧]

وإذا كان عرابى قد اعتمد على الفلاحين الفقراء فى ثورته فإنهم لم يخيبوا رجاءه.

فالثورة الشعبية تلتهب، والجماهير المصرية تلتف حول عرابى وتسميه «الوحيد». ويهرب الخديو إلى أحضان الأسطول الإنجليزى ويخوض الفلاحون حربهم دفاعا عن مصالحهم وتحقيقا لأحلامهم. وإذا كان المرابون قد امتصوا دماء الفلاحين ونهبوا أرضهم فقد ركزت التحركات الفلاحية على هؤلاء المرابين، ويسرع كارترايت نائب القنصل الانجليزى فيرسل من الإسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٧٨٢ إلى حكومته قائلا «إن الفلاحين الهائجين يهاجمون الأجانب لينتزعوا منهم الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من ديون وقد أتى خبر رسمى أن هناك فى ناحية بنها قتيل يونانى وكان السبب فى قتله هو امتناعه من إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين عليهم واجب السداد»[٤٨]

وعندما طلب عرابى معونات من الشعب لتموين جيشه على أن تخصم من الضرائب المستحقة عليهم تحرك الفلاحون لتنفيذ هذا

القرار وأخذوا معهم مشايخ البلاد «فكانوا يشددون النكير على أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ومن ينتمى إليهم وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة هل أتيت من تركيا بلدك ومعك هذه الأطيان، إنما هى أطيان القطر ونحن أبناء هذا الوطن ولا يحق لغيرنا أن ينتفع بها. لقد أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضا ولا فلسا فعدتم الآن أصحاب أراض وأطيان وتحرموننا من خيرها. وكان بعضهم لا يكتفى بالكلام الحاد بل كانوا يعمدون إلى اقتسام الأراضى ويقولون للمالك التركى هذه القطعة لنا وهذه لك، وأحيانا يقولون لصاحب الأرض اخرج من البلاد كما جئتها، فكان الملاك الأتراك يزدادون خوفا وحسبانا لبلاء عظيم فانقطع كثيرون منهم عن التردد على أراضيهم والتزموا بيوتهم واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان إلى انتهائه وهى مدة قضاها أصحاب الأراضى فى معاناة المتاعب وتحمل الذل والهوان»[٤٩]

وهكذا يحدث التحول الكبير فى موقف الفلاح المصرى من الظلم. فى زمن محمد على كان الفلاح يهرب خارج مصر إذا ما شعر بعدم القدرة على احتمال عسف ونهب الحكام، أما فى ظل الثورة العرابية فقد شارك الفلاح، وخاض بنفسه صراعاً يستهدف تحقيق مطالبه. وكان هذا مقدمة لإسهام الفلاحين إسهاماً واسعاً وثوريا فى ثورة ١٩١٩.

ثم هزم «الولس» عرابى. تحالفت الخلافة العثمانية مع الأنجليز، فإذا كانت مصر ستقع فى أيدى ضباط من أصل فلاحى سيعلنون

الجمهورية فالأفضل بالنسبة للعثمانيين أن تقع فى أيدى الإنجليز. وتحالف مع الاثنين كبار الملاك العقاريين، الجميع خانوا عرابى وهاجموه وقابلوا هزيمته بالتشفى والمطالبة بإعدامه. كانوا يكرهون عرابى ليس لأنه ثائر وإنما لأنه مصرى وفلاح من طين مصر، ولعلهم لم يستطيعوا إخفاء ذلك، فمصطفى باشا وهو واحد من كبار الأعيان كتب قصيدة طويلة بعنوان «حقوق المقال فى مثالب البغاة الجهال» جاء فيها :

تبين عقبى كل معتدى
وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى
ثم يتهكم على الضباط الفلاحين قائلا:
فأصبحتم أصحاب سيف ومدفع
وللفأس والشادوف وسمات باليد

لقد هزم عرابى ولكن بعد أن تألقت مصر وطنا للمصريين وبعد أن عرف الشعب حقيقة انتمائه ودفع من دمه ثمن هذه المعرفة فى ميادين القتال إلى جانب الجيوش العرابية.

وإذ ترتوى الجذور المصرية المنغمسة فى تراب الوطن حتى أعمق أعماقه، إذ ترتوى بدماء الثوار العرابيين المصريين تورق انتماء ليس وليد اللحظة ولا وليد الثورة والتضحية وإنما هو كامن فى كل ذرة رمل من هذه الأرض وفى كل خلية من خلايا جسد كل مصرى.

وإذ تعمد الشعار المجيد «مصر للمصريين» بدماء العرابيين صار مستعصيا على التجاهل، لكن التأسلم يبقى محاولا نفى الوطنية

المصرية، مستندا أو محاولا أن يستند إلى وهم الخلافة العثمانية التى كانت على زمانها أسوأ أشكال الحكم وأكثرها استبداداً وجهالة ليس فقط بالنسبة للشعوب والأمم الملحقة بها، وإنما أيضا بالنسبة للشعب التركى ذاته.

* * *

وإذ يتهادى القرن العشرين مقبلا على مصر التى كانت كما وصفها لورد كرومر عميد الاحتلال البريطانى بمصر بأنها تذوب شوقاً للثورة، وإذ تبدأ إرهاصات جنين الثورة القادمة فى ١٩١٩ تلوح فى الأفق لو من بعيد تطرح من جديد مسألة إلى أين يتجه المصريون بهذا الوطن بعد تحريره من الاحتلال؟ إلى استقلال تام تحت شعار مصر للمصريين أم إلى الارتماء تحت أقدام الخليفة المستبد؟ وفى هذه اللحظة امتزج عنصران معاً، أولهما عنصر الفهم الخاطئ لفكرة الخلافة وعلاقتها بالدين، وثانيهما إحساس المصريين بالوهن بعد هزيمة الثورة العرابية وتصورهم أنهم بحاجة إلى دعم يحميهم من تسلط الإنجليز، وربما تصورهم أن احتمال ظلم الخليفة خاقان البرين والبحرين وحامى حمى الإسلام والمسلمين خير من احتمال ظلم الاحتلال الإنجليزى.

ويصدر محمد فريد كتابا يمتدح فيه الخلافة العثمانية عنوانه «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ويمتدح أيضا الأسرة العلوية من محمد على وحتى عباس حلمى، ويصف محمد على- وربما كان على حق فى هذه التسمية - بأنه «ممدن مصر وباعثها من رمسها ومعيد

مجدها ومن له عليها الأيادى البيضاء طول الدهر الأمير الجليل المرحوم محمد على باشا مؤسس العائلة الكريمة الخديوية وثالث جد لخديوينا الحالى أفندينا عباس باشا حلمى الثانى »[٥٠] ويحمل فريد كتابه ليهديه للخديو ويورد فى مذكراته عن يوم ٢٢ فبراير ١٨٩٤ «وتشرفت بمقابلة الخديو وقدمت له نسخة من تأليفى الجديد تاريخ الدولة العلية العثمانية فقبلها بكل ارتياح وأجلسنى بحضرته وأخذ يشجعنى على التأليف فخرجت شاكرا» [٥١]

وهكذا وقع فريد بين فكى ما اكتشف فيما بعد أنهما أعداء لهذا الوطن.

وإذ بدأت الرؤية أكثر وضوحا.. يتباعد فريد عن الخديو خطوة خطوة وتكون القطيعة عندما أصدر الخديو قانون المطبوعات فتنشر اللواء

أعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما
قضيت علينا أن تكون غضابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها
وأصليتنا بعد الوفاق عذابا

والحقيقة أن الخديو كان يريد أن يقيد خطى الحزب الوطنى ويربطه بسياسة التهادن مع الإنجليز. وهو لم يخف ذلك فقد صرح لجريدة «التان» الفرنسية «لقد اشتغلت دائما بترقية بلادى وتقدمها

الحضارى ولكن للأسف وجدت قوم متسرعين جدا جدا أخروا تقدمها الطبيعى بمناداتهم بمطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بضوضاء عالية»[٥٢]

أما العلاقة مع الخلافة العثمانية فقد كانت أكثر تعقيدا. فالعثمانيون ضد الاحتلال البريطانى لكن كلاً منهما يريد مصر له، وكلاهما لا يقبلان شعار «مصر للمصريين». أما فريد فقد كان يمتلك قدرة ذكية على أن يلمح الحقيقة المصرية الكامنة فى وجدان المصريين فهو يكتب فى أول صفحة من صفحات مذكراته التى بدأها عام ١٨٩١ «أن الوحدة الجنسية آخذة فى النمو بين الأفراد وكذلك الشعائر الوطنية فهى فى ازدياد يوما بعد يوم حتى لم يعد المصرى يأنف من كونه مصريا وينتحل له جنسية أجنبية كأن يدعى أنه تركى مثلا» [٥٣]

ونلاحظ أن فريد قد اعتبر فى هذه الفقرة أن ذوى الأصل التركى هم من جنسية أخرى وليسوا مصريين.

وتمضى الروح المصرية لتعيد تشكيل فريد فيكتب فى المذكرات «والجرائد الوطنية الحقيقية فى مصر هى جرنالى المؤيد للشيخ على يوسف والوطن لميخائيل عبد السيد وكلاهما مصرى محض لم يختلط بدمه دم أجنبى ، أما الأهرام فمحرره نقولا بك تقلا الشامى وخطته الدفاع عن مصالح فرنسا فى مصر»[٥٤] ويتحدث مرة أخرى عن الجرائد فيقول «انهالت الرسائل على الجرائد من الوطنيين الذين لا يريدون إلا استقلال وطنهم أما المقطم الشامى الإنكليزى فكان دائما

من المساعدين على ازدياد نفوذ الإنكليز، والأهرام الشامى الفرنساوى مذبذب لا يود إلا الطعن فى الوزارة الوطنية»[٥٥].. ولعلنا لا نبتلع الآن كلمات كهذه لكنها الحقيقة فقد نجح الإنجليز فى دق إسفين عميق بين الشوام الذين ساعدهم الإنجليز ومنحوهم الوظائف والإمكانات، وبين المصريين الذين عانوا أشد المعاناة، ويصل الأمر بفريد إلى أن كتب فى مذكراته عن يوم ٣ نوفمبر ١٨٩٤ «ولا يمضى قليل حتى نرى الدخلاء الشوام انبثوا فى المديريات بوظائف عالية وربما عين منهم المديرون وهى الطامة الكبرى التى نخشاها الآن لأن الشوام أخطر على مصر من الإنجليز»[٥٦].

لكن هذا الطعم السام لم يدم طويلا.. وعاد فريد ليركز هجومه على الاحتلال وعلى فكرة الانتماء للخلافة.

ومنذ وقت مكبر صرح مصطفى كامل لجريدة «لاكلير» الفرنسية «ومحصلة القول إن البحث فى المسائل الشرقية على مبدأ الدين من أكبر الوسائل لتوليد الأحقاد والضغائن وتأجيل توطيد السلام العام»[٥٧] وربما يصحح ذلك ما ادعاه البعض من أن «الحزب الوطنى كان مثلما كان مؤسساه مصطفى كامل وخليفته محمد فريد مصريا فى الدرجة الأولى وإسلاميا فى الدرجة الثانية» [٥٨] وهذا القول غامض ويحتاج إلى تفصيل ولعل شفرته سوف تحل عندما نتابع موقف محمد فريد من الأتراك ومن مسألة الخلافة. أما الأتراك فقد ظل فريد يهاجمهم ويعلن احتقاره لدورهم فى مصر. ونقرأ فى مذكراته «فى أول أكتوبر اجتمع مجلس شورى القوانين تحت رياسة

حسن باشا حلمى وكيله وهو من الباشاوات الأتراك الذين لا يفقهون فى أمر البلاد إلا قولهم إن الدواء للفلاح هو الكرباج» [٥٩] بل هو يبدى على عكس ما هو معلوم عطفا على عرابى وإدانة للعثمانيين الذين أسهموا فى هزيمته إذ يقول «فالباشوات الأتراك القدماء كانوا سببا فى ضياع البلاد بل وربما كان لهم دخل فى إدخال الإنجليز بمعارضتهم عرابى باشا فى مشروعاته الوطنية لكونه فلاحاً ليس إلا»[٦٠] وعندما يتحدث فريد عن التبعية المصرية للخلافة العثمانية يقول «نعم إن هذه التبعية لا تفيد مصر أقل فائدة مادية بل بالعكس. إلا أنها تفيد فائدة أدبية وهى تقوية حجة المعارضين للإنجليز فى مصر»[٦١] ويقول «ولو أن الدولة العلية غير قادرة على إلزام الإنجليز عن الخروج من مصر، ولكن لا يخفى ما يفيد تأييد روابط التبعية من غل يد الإنجليز على ابتلاع مصر دفعة واحدة»[٦٢] ونلاحظ تدقيقا لما أوردناه أن فريد يتخذ من العلاقة بالدولة العلية مجرد عائق لمنع الإنجليز من ابتلاع مصر، ونلاحظ أيضا أن هذه النصوص منقولة جميعا من مذكرات خطية لم تكن للاطلاع العام بل هى خواطر لعل السياسى يغير بعضا منها عندما يعلنها للملأ.

لكن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة لفريد فثمة تيار لم يكن ضعيفا لم يزل يتعلق بأوهام الخلافة العثمانية ويسعى لتأكيدها فى المناخ المصرى وخاصة فى صفوف الحزب الوطنى، ويتعرض فريد لضغوط شديدة ترتدى ثيابا متأسلمة، ويروى فى مذكراته أن عزيز المصرى قد عرض عليه فكرة خلافة عربية (أى بديلة للخلافة العثمانية)

«وتأسيس جمعية الشباب العرب» ولكنى رفضت بشدة مقترحات عزيز المصرى بعد أن بينت له خطر الانقسام بين عنصرى الأمة» (٦٣). لكن الصوت الأعلى والأكثر خطرا كان صوت الشيخ جاويش الذى اقتحم ميدان الحزب الوطنى والصحافة بكلمات حادة وحاسمة تؤكد «لا وطنية فى الإسلام» و«إضاعة الخلافة إضاعة للذات» ويؤكد «أن طريق مصر الوحيد والصحيح هو تعزيز وحدة العالم الإسلامى ممثلة فى الدولة العثمانية والعمل على بقاء هذه الوحدة ومقاومة تمزيقها فتمزيقها ضياع للوطن كله وتمكين للنفوذ الأجنبى كى يلتهمه» (٦٤) وكانت كلمات جاويش عن معارضيه حادة وجافة كعادة المتأسلمين فعندما انتقد أحمد لطفى السيد الدعوة لحشد جموع من المسلمين لمساندة المسلمين فى طرابلس الغرب يرد عليه جاويش «لقد خسر الذين قتلتهم وساوس صدورهم وأعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم يحاولون أن يصرفوا الأمة الإسلامية عن تخفيف ويلات أخوانهم». ثم يخاطب لطفى السيد «أى عدو نفسه هل نقمت منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين وأن نستفز الموحدين لإغاثة الموحدين، فماذا كنت تريد؟ مكانك، مكانك أيها الجبان، فمالك بميادين تميتك صورتها ويصعقك ذكرها، وإن لم تشأ فخير لك أن تحفر الأرض بأظافرك وأن تتردى فيها، ثم ارطم رأسك بالحجارة حتى يخرج من دماغك ذلك المخ الذى كان سبب شقائك وأصل بلائك»(٦٥)

ولسنا هنا بصدد تقييم الموقف من الدعوة لنجدة مسلمى طرابلس العرب من غزو استعمارى، وإنما فقط نقدم نموذجا لحدة المفردات

وخشونة الحوار، وولاء الشيخ جاويش لا يتجه لأى حاكم إسلامى هو فقط مع «الخليفة العثمانى» وأى حاكم آخر ومهما ادعى أنه يحكم باسم الإسلام فهو عدو مارق لأنه يدمر وحده المسلمين ويمنع التفافهم حول الخليفة العثمانى.

وعندما صرح شاه إيران فى نوفمبر ١٩٠٨ بأن المتعلمين من أفراد شعبه لايرغبون فى قيام مجلس نيابى أو إصدار دستور، وقال إن علماء المسلمين فى بلده قد أفتوا بأن مثل هذه الأمور مخالفة للشرع، يرد عليه جاويش لم يبلغ الشاة بغيته بما أنزل بأمته من الكوارث الساحقة الماحقة، فثاب إلى تكأته التى طالما توكأ عليها ضعاف الإيمان من أمراء المسلمين، فجمع حوله من رجال الدين عمائم كالتمائم ولحى كذيول الخيل، وجببا كأنها أوراق الكرنب، وسبحا لا تقل حباتها عن بيض الحمام وألسنا لا تريح كاتب السيئات»(٦٦)

مع هذا الرجل خاض فريد معركة «مصر للمصريين» ورغم أنف جاويش أمر فريد بأن يتم صنع دبوس للحزب الوطنى فى جنيف مكتوب عليه «مصر للمصريين» وكان جاويش يتوعد كل من يضع هذا الدبوس. وغنى عن القول إن صوت جاويش العالى والحاد ومحاولاته للانحياز للخلافة العثمانية قد دفعت البعض من الليبراليين ودعاة «مصر للمصريين» وكثيرا من الأقباط إلى الخروج من الحزب.

وعندما أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر بدأت تركيا تعد لإرسال حملة عسكرية إلى مصر وتخوف فريد بشدة من مناورات

العثمانيين وكتب فى مذكراته (يوم ١٤ ديسمبر ١٩١٤) «هذا دليل جديد يضاف إلى غيره مما سبق ذكره على أن القوم (العثمانيين) يداعبون الحزب الوطنى ليساعدهم على فتح مصر وبعدها ينفذون ارادتهم الاستبدادية فى بلادنا» ثم يقول «أخذت أفكر فى جميع هذه الأمور فكاد يتأكد عندى عدم إخلاص القوم معنا»[٦٧]

بل إن فريد يقول : «كل هذه الأعمال تنفر المصريين من الأتراك وتجعلنا نخشى أن يكون نصيبنا الشنق لو دخل جمال باشا مصر»[٦٨]

وفى يناير ١٩١٦ وقبل أن تتضح كفة الغالب والمغلوب فى الحرب العالمية الأولى تحدث فريد مع الهر زمرمان وكيل الخارجية الألمانية قائلا «لا يجوز للترك أن يتدخلوا فى إدارة مصر لجهلهم بالبلاد وأهلها، بل لجهلهم بالإدارة أصلا ، كما هو مشاهد من إدارتهم لسوريا وغيرها من الأقطار، ونحن لا نقبل أن نكون تحت إدارتهم بأى حال من الأحوال، لأننا أرقى منهم كثيرا وبلادنا أكثر انتظاما منهم حتى فيما قبل دخول الإنجليز مصر، وبالاختصار يا سيدى فإن الأتراك يريدون أن يأكلوا مصر، ولكننا لا نقبل أن نؤكل بسهولة فنحن قاومنا الإنجليز ونقاوم كل من يريد أكلنا أيا كان لأننا إنما نسعى وراء الاستقلال وغاية ما نقبله، أن نكون مع الأتراك مثل المجر مع النمسا على شرط المساواة فى الحقوق والاستقلال التام»[٦٩]

وعندما أوشكت الحرب العالمية الأولى على الانتهاء، وإتضح أن تركيا وألمانيا ستهزمان بدأ البعض فى الضغط على فريد للتفاهم مع الإنجليز لكن فريد قال «إن أى اتفاق مع الإنجليز سيعنى الاعتراف

بالحماية وبالاحتلال وهذا ما لا يمكن التفكير فيه أصلا»

فماذا نفعل إذن؟ هكذا سأله البعض وأجاب فريد «حينئذ نشرع فى تجهيز الثورة فى مصر وليس الاعتراف بالحماية مهما كان شكلها ومهما أعطانا الإنجليز من امتيازات»[٧٠]

لكن الثورة قامت هاتفة بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، مؤكدة شعار مصر للمصريين. وكان فريد خارج البلاد.. وقاد الثورة بعض ممن كان يعاديهم فريد متهما إياهم بالاعتدال.

ويبقى فريد فى هجرته مشتاقا اشتياق المحب الولهان لمصر فيكتب لأسرته فى ٣ يوليو ١٩١٣ رسالة يقول فيها «لا تمضى ليلة بدون أن أرى فى المنام أننى فى مصر وفى منزل شبرا فى حالته الأولى، وأرى إخوتى وأولادهم، وهذا حقيقة أمر غريب»[٧١].

ويعرض عليه الأتراك أموالا طائلة شريطة أن يتنازل عن تمسكه بمصر للمصريين ويرفض، ويكتب لأسرته «أما أنا فلا أتزعزع مهما صادفتنى الصعوبات، حتى ولو تألمت من الجوع، لا أخضع ولا أتحول عن مبدئى ولا أبيع شرفى مهما كانت الحالة»[٧٢].

ولقد كان فريد يتألم فعلا من الجوع، هذا الأرستقراطى يشكو فعلا من الجوع ويرسل لأسرته «تضايقنى المسألة المالية جدا، لم يبق معى سوى بنتو واحد ولا أجد ما أدفعه للوكاندة وهو سبعة فرنكات غير المصاريف النثرية والغسيل والمزين وخلافه، اهتموا بهذا الأمر وتشددوا فيه حتى ولو أدى الحال إلى أن تقدمونى على مصروف البيت».

ويكتب مراسل التايمز اللندنية «أن الفلاحين لذعتهم الفاقة وأصبحوا لا يجدون من الزاد إلا ما هو دون الكفاف، ويعملون صباح مساء لملء جيوب السادة الدائنين»[٤٣]

وشعرا يكتب عبد الله النديم واصفا حال الفلاح.

أهل البنوكا والأطيان
صاروا على الأعيان أعيان
وابن البلد ماشى عريان
ممعاه ولا حق الدخان
شرم برم حالى غلبان [٤٤]

وهكذا استندت الثورة فى تحركها الجماهيرى على الفلاحين الفقراء، ونستمع إلى النديم مبررا ذلك «فكنت كلما نبهت عاقلا أسكتنى، فإذا ألححت عليه أنبنى وبكتنى، فلم أجد طريقا لتنبيه الوجوه والأمراء إلا بعصبية أكونها من الفقراء»[٤٥]

والحقيقة أن عرابى كان يتخذ من الجيش كمحرك لثورة فعلية يؤكد كثير من الباحثين الأجانب أنها كانت تستهدف طرد أسرة محمد على والتخلص من أسر الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية المصرية.

ونعود لبلنت مرة أخرى «لقد حبذ العرابيون النظام الجمهورى، وقد ظل محمود سامى البارودى يعدد لى مزايا إقامة حكومة جمهورية فى مصر، وقال إننا كنا نريد منذ البداية إعلان حكومة جمهورية مثل سويسرا لكننا وجدنا بعض المشايخ يرفضون هذه

الفكرة فهى جديدة على مجتمعنا لكننا نسعى قدر استطاعتنا أن نقيم قريبا حكومة جمهورية مصر»[٤٦]

وفى ١٠ مايو ١٨٨٢ أبرق ستنكس سفير فرنسا برقية إلى حكومته قائلا «إنهم حكومة ثورية، يرغبون فى خلع الخديو وعندما اقترح أحدهم على عرابى اسم حليم باشا كخديو صاح غاضبا إننا يجب أن نتخلص من أسرة محمد على كلها»[٤٧]

وإذا كان عرابى قد اعتمد على الفلاحين الفقراء فى ثورته فإنهم لم يخيبوا رجاءه.

فالثورة الشعبية تلتهب، والجماهير المصرية تلتف حول عرابى وتسميه «الوحيد». ويهرب الخديو إلى أحضان الأسطول الإنجليزى ويخوض الفلاحون حربهم دفاعا عن مصالحهم وتحقيقا لأحلامهم. وإذا كان المرابون قد امتصوا دماء الفلاحين ونهبوا أرضهم فقد ركزت التحركات الفلاحية على هؤلاء المرابين، ويسرع كارترايت نائب القنصل الانجليزى فيرسل من الإسكندرية فى ٢٦ يونيو ١٧٨٢ إلى حكومته قائلا «إن الفلاحين الهائجين يهاجمون الأجانب لينتزعوا منهم الكمبيالات التى تثبت ما عليهم من ديون وقد أتى خبر رسمى أن هناك فى ناحية بنها قتيل يونانى وكان السبب فى قتله هو امتناعه من إعطاء الفلاحين سنداتهم التى له بمقتضاها دين عليهم واجب السداد»[٤٨]

وعندما طلب عرابى معونات من الشعب لتموين جيشه على أن تخصم من الضرائب المستحقة عليهم تحرك الفلاحون لتنفيذ هذا

القرار وأخذوا معهم مشايخ البلاد «فكانوا يشددون النكير على أصحاب الأبعاديات من الأتراك والشراكسة ومن ينتمى إليهم وكان بعض المشايخ يقولون للمعتذر أو طالب المهلة هل أتيت من تركيا بلدك ومعك هذه الأطيان، إنما هى أطيان القطر ونحن أبناء هذا الوطن ولا يحق لغيرنا أن ينتفع بها. لقد أتيتمونا فقراء لا تملكون أرضا ولا فلسا فعدتم الآن أصحاب أراض وأطيان وتحرموننا من خيرها. وكان بعضهم لا يكتفى بالكلام الحاد بل كانوا يعمدون إلى اقتسام الأراضى ويقولون للمالك التركى هذه القطعة لنا وهذه لك، وأحيانا يقولون لصاحب الأرض اخرج من البلاد كما جئتها، فكان الملاك الأتراك يزدادون خوفا وحسبانا لبلاء عظيم فانقطع كثيرون منهم عن التردد على أراضيهم والتزموا بيوتهم واستمرت هذه الحالة جارية من ابتداء شهر رمضان إلى انتهائه وهى مدة قضاها أصحاب الأراضى فى معاناة المتاعب وتحمل الذل والهوان»[٤٩]

وهكذا يحدث التحول الكبير فى موقف الفلاح المصرى من الظلم. فى زمن محمد على كان الفلاح يهرب خارج مصر إذا ما شعر بعدم القدرة على احتمال عسف ونهب الحكام، أما فى ظل الثورة العرابية فقد شارك الفلاح، وخاض بنفسه صراعاً يستهدف تحقيق مطالبه. وكان هذا مقدمة لإسهام الفلاحين إسهاماً واسعاً وثوريا فى ثورة ١٩١٩.

ثم هزم «الولس» عرابى. تحالفت الخلافة العثمانية مع الأنجليز، فإذا كانت مصر ستقع فى أيدى ضباط من أصل فلاحى سيعلنون

الجمهورية فالأفضل بالنسبة للعثمانيين أن تقع فى أيدى الإنجليز. وتحالف مع الاثنين كبار الملاك العقاريين، الجميع خانوا عرابى وهاجموه وقابلوا هزيمته بالتشفى والمطالبة بإعدامه. كانوا يكرهون عرابى ليس لأنه ثائر وإنما لأنه مصرى وفلاح من طين مصر، ولعلهم لم يستطيعوا إخفاء ذلك، فمصطفى باشا وهو واحد من كبار الأعيان كتب قصيدة طويلة بعنوان «حقوق المقال فى مثالب البغاة الجهال» جاء فيها :

تبين عقبى كل معتدى
وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى
ثم يتهكم على الضباط الفلاحين قائلا:
فأصبحتم أصحاب سيف ومدفع
وللفأس والشادوف وسمات باليد

لقد هزم عرابى ولكن بعد أن تألقت مصر وطنا للمصريين وبعد أن عرف الشعب حقيقة انتمائه ودفع من دمه ثمن هذه المعرفة فى ميادين القتال إلى جانب الجيوش العرابية.

وإذ ترتوى الجذور المصرية المنغمسة فى تراب الوطن حتى أعمق أعماقه، إذ ترتوى بدماء الثوار العرابيين المصريين تورق انتماء ليس وليد اللحظة ولا وليد الثورة والتضحية وإنما هو كامن فى كل ذرة رمل من هذه الأرض وفى كل خلية من خلايا جسد كل مصرى.

وإذ تعمد الشعار المجيد «مصر للمصريين» بدماء العرابيين صار مستعصيا على التجاهل، لكن التأسلم يبقى محاولا نفى الوطنية

المصرية، مستندا أو محاولا أن يستند إلى وهم الخلافة العثمانية التى كانت على زمانها أسوأ أشكال الحكم وأكثرها استبداداً وجهالة ليس فقط بالنسبة للشعوب والأمم الملحقة بها، وإنما أيضا بالنسبة للشعب التركى ذاته.

* * *

وإذ يتهادى القرن العشرين مقبلا على مصر التى كانت كما وصفها لورد كرومر عميد الاحتلال البريطانى بمصر بأنها تذوب شوقاً للثورة، وإذ تبدأ إرهاصات جنين الثورة القادمة فى ١٩١٩ تلوح فى الأفق لو من بعيد تطرح من جديد مسألة إلى أين يتجه المصريون بهذا الوطن بعد تحريره من الاحتلال؟ إلى استقلال تام تحت شعار مصر للمصريين أم إلى الارتماء تحت أقدام الخليفة المستبد؟ وفى هذه اللحظة امتزج عنصران معاً، أولهما عنصر الفهم الخاطئ لفكرة الخلافة وعلاقتها بالدين، وثانيهما إحساس المصريين بالوهن بعد هزيمة الثورة العرابية وتصورهم أنهم بحاجة إلى دعم يحميهم من تسلط الإنجليز، وربما تصورهم أن احتمال ظلم الخليفة خاقان البرين والبحرين وحامى حمى الإسلام والمسلمين خير من احتمال ظلم الاحتلال الإنجليزى.

ويصدر محمد فريد كتابا يمتدح فيه الخلافة العثمانية عنوانه «تاريخ الدولة العلية العثمانية» ويمتدح أيضا الأسرة العلوية من محمد على وحتى عباس حلمى، ويصف محمد على- وربما كان على حق فى هذه التسمية - بأنه «ممدن مصر وباعثها من رمسها ومعيد

مجدها ومن له عليها الأيادى البيضاء طول الدهر الأمير الجليل المرحوم محمد على باشا مؤسس العائلة الكريمة الخديوية وثالث جد لخديوينا الحالى أفندينا عباس باشا حلمى الثانى »[٥٠] ويحمل فريد كتابه ليهديه للخديو ويورد فى مذكراته عن يوم ٢٢ فبراير ١٨٩٤ «وتشرفت بمقابلة الخديو وقدمت له نسخة من تأليفى الجديد تاريخ الدولة العلية العثمانية فقبلها بكل ارتياح وأجلسنى بحضرته وأخذ يشجعنى على التأليف فخرجت شاكرا» [٥١]

وهكذا وقع فريد بين فكى ما اكتشف فيما بعد أنهما أعداء لهذا الوطن.

وإذ بدأت الرؤية أكثر وضوحا.. يتباعد فريد عن الخديو خطوة خطوة وتكون القطيعة عندما أصدر الخديو قانون المطبوعات فتنشر اللواء

أعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذاك عتابا
ونيأس من آمالنا فيك كلما
قضيت علينا أن تكون غضابا
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها
وأصليتنا بعد الوفاق عذابا

والحقيقة أن الخديو كان يريد أن يقيد خطى الحزب الوطنى ويربطه بسياسة التهادن مع الإنجليز. وهو لم يخف ذلك فقد صرح لجريدة «التان» الفرنسية «لقد اشتغلت دائما بترقية بلادى وتقدمها

الحضارى ولكن للأسف وجدت قوم متسرعين جدا جدا أخروا تقدمها الطبيعى بمناداتهم بمطالب سابقة لأوانها ومصحوبة بضوضاء عالية»[٥٢]

أما العلاقة مع الخلافة العثمانية فقد كانت أكثر تعقيدا. فالعثمانيون ضد الاحتلال البريطانى لكن كلاً منهما يريد مصر له، وكلاهما لا يقبلان شعار «مصر للمصريين». أما فريد فقد كان يمتلك قدرة ذكية على أن يلمح الحقيقة المصرية الكامنة فى وجدان المصريين فهو يكتب فى أول صفحة من صفحات مذكراته التى بدأها عام ١٨٩١ «أن الوحدة الجنسية آخذة فى النمو بين الأفراد وكذلك الشعائر الوطنية فهى فى ازدياد يوما بعد يوم حتى لم يعد المصرى يأنف من كونه مصريا وينتحل له جنسية أجنبية كأن يدعى أنه تركى مثلا» [٥٣]

ونلاحظ أن فريد قد اعتبر فى هذه الفقرة أن ذوى الأصل التركى هم من جنسية أخرى وليسوا مصريين.

وتمضى الروح المصرية لتعيد تشكيل فريد فيكتب فى المذكرات «والجرائد الوطنية الحقيقية فى مصر هى جرنالى المؤيد للشيخ على يوسف والوطن لميخائيل عبد السيد وكلاهما مصرى محض لم يختلط بدمه دم أجنبى ، أما الأهرام فمحرره نقولا بك تقلا الشامى وخطته الدفاع عن مصالح فرنسا فى مصر»[٥٤] ويتحدث مرة أخرى عن الجرائد فيقول «انهالت الرسائل على الجرائد من الوطنيين الذين لا يريدون إلا استقلال وطنهم أما المقطم الشامى الإنكليزى فكان دائما

من المساعدين على ازدياد نفوذ الإنكليز، والأهرام الشامى الفرنساوى مذبذب لا يود إلا الطعن فى الوزارة الوطنية»[٥٥].. ولعلنا لا نبتلع الآن كلمات كهذه لكنها الحقيقة فقد نجح الإنجليز فى دق إسفين عميق بين الشوام الذين ساعدهم الإنجليز ومنحوهم الوظائف والإمكانات، وبين المصريين الذين عانوا أشد المعاناة، ويصل الأمر بفريد إلى أن كتب فى مذكراته عن يوم ٣ نوفمبر ١٨٩٤ «ولا يمضى قليل حتى نرى الدخلاء الشوام انبثوا فى المديريات بوظائف عالية وربما عين منهم المديرون وهى الطامة الكبرى التى نخشاها الآن لأن الشوام أخطر على مصر من الإنجليز»[٥٦].

لكن هذا الطعم السام لم يدم طويلا.. وعاد فريد ليركز هجومه على الاحتلال وعلى فكرة الانتماء للخلافة.

ومنذ وقت مكبر صرح مصطفى كامل لجريدة «لاكلير» الفرنسية «ومحصلة القول إن البحث فى المسائل الشرقية على مبدأ الدين من أكبر الوسائل لتوليد الأحقاد والضغائن وتأجيل توطيد السلام العام»[٥٧] وربما يصحح ذلك ما ادعاه البعض من أن «الحزب الوطنى كان مثلما كان مؤسساه مصطفى كامل وخليفته محمد فريد مصريا فى الدرجة الأولى وإسلاميا فى الدرجة الثانية» [٥٨] وهذا القول غامض ويحتاج إلى تفصيل ولعل شفرته سوف تحل عندما نتابع موقف محمد فريد من الأتراك ومن مسألة الخلافة. أما الأتراك فقد ظل فريد يهاجمهم ويعلن احتقاره لدورهم فى مصر. ونقرأ فى مذكراته «فى أول أكتوبر اجتمع مجلس شورى القوانين تحت رياسة

حسن باشا حلمى وكيله وهو من الباشاوات الأتراك الذين لا يفقهون فى أمر البلاد إلا قولهم إن الدواء للفلاح هو الكرباج» [٥٩] بل هو يبدى على عكس ما هو معلوم عطفا على عرابى وإدانة للعثمانيين الذين أسهموا فى هزيمته إذ يقول «فالباشوات الأتراك القدماء كانوا سببا فى ضياع البلاد بل وربما كان لهم دخل فى إدخال الإنجليز بمعارضتهم عرابى باشا فى مشروعاته الوطنية لكونه فلاحاً ليس إلا»[٦٠] وعندما يتحدث فريد عن التبعية المصرية للخلافة العثمانية يقول «نعم إن هذه التبعية لا تفيد مصر أقل فائدة مادية بل بالعكس. إلا أنها تفيد فائدة أدبية وهى تقوية حجة المعارضين للإنجليز فى مصر»[٦١] ويقول «ولو أن الدولة العلية غير قادرة على إلزام الإنجليز عن الخروج من مصر، ولكن لا يخفى ما يفيد تأييد روابط التبعية من غل يد الإنجليز على ابتلاع مصر دفعة واحدة»[٦٢] ونلاحظ تدقيقا لما أوردناه أن فريد يتخذ من العلاقة بالدولة العلية مجرد عائق لمنع الإنجليز من ابتلاع مصر، ونلاحظ أيضا أن هذه النصوص منقولة جميعا من مذكرات خطية لم تكن للاطلاع العام بل هى خواطر لعل السياسى يغير بعضا منها عندما يعلنها للملأ.

لكن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة لفريد فثمة تيار لم يكن ضعيفا لم يزل يتعلق بأوهام الخلافة العثمانية ويسعى لتأكيدها فى المناخ المصرى وخاصة فى صفوف الحزب الوطنى، ويتعرض فريد لضغوط شديدة ترتدى ثيابا متأسلمة، ويروى فى مذكراته أن عزيز المصرى قد عرض عليه فكرة خلافة عربية (أى بديلة للخلافة العثمانية)

«وتأسيس جمعية الشباب العرب» ولكنني رفضت بشدة مقترحات عزيز المصرى بعد أن بينت له خطر الانقسام بين عنصرى الأمة» (٦٣). لكن الصوت الأعلى والأكثر خطرا كان صوت الشيخ جاويش الذى اقتحم ميدان الحزب الوطنى والصحافة بكلمات حادة وحاسمة تؤكد «لا وطنية فى الإسلام» و«إضاعة الخلافة إضاعة للذات» ويؤكد «أن طريق مصر الوحيد والصحيح هو تعزيز وحدة العالم الإسلامى ممثلة فى الدولة العثمانية والعمل على بقاء هذه الوحدة ومقاومة تمزيقها فتمزيقها ضياع للوطن كله وتمكين للنفوذ الأجنبى كى يلتهمه» (٦٤) وكانت كلمات جاويش عن معارضيه حادة وجافة كعادة المتأسلمين فعندما انتقد أحمد لطفى السيد الدعوة لحشد جموع من المسلمين لمساندة المسلمين فى طرابلس الغرب يرد عليه جاويش «لقد خسر الذين قتلتهم وساوس صدورهم وأعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم يحاولون أن يصرفوا الأمة الإسلامية عن تخفيف ويلات أخوانهم». ثم يخاطب لطفى السيد «أى عدو نفسه هل نقمت منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين وأن نستفز الموحدين لإغاثة الموحدين، فماذا كنت تريد؟ مكانك، مكانك أيها الجبان، فمالك بميادين تميتك صورتها ويصعقك ذكرها، وإن لم تشأ فخير لك أن تحفر الأرض بأظافرك وأن تتردى فيها، ثم ارطم رأسك بالحجارة حتى يخرج من دماغك ذلك المخ الذى كان سبب شقائك وأصل بلائك»(٦٥)

ولسنا هنا بصدد تقييم الموقف من الدعوة لنجدة مسلمى طرابلس العرب من غزو استعمارى، وإنما فقط نقدم نموذجا لحدة المفردات

وخشونة الحوار، وولاء الشيخ جاويش لا يتجه لأى حاكم إسلامى هو فقط مع «الخليفة العثمانى» وأى حاكم آخر ومهما ادعى أنه يحكم باسم الإسلام فهو عدو مارق لأنه يدمر وحده المسلمين ويمنع التفافهم حول الخليفة العثمانى.

وعندما صرح شاه إيران فى نوفمبر ١٩٠٨ بأن المتعلمين من أفراد شعبه لايرغبون فى قيام مجلس نيابى أو إصدار دستور، وقال إن علماء المسلمين فى بلده قد أفتوا بأن مثل هذه الأمور مخالفة للشرع، يرد عليه جاويش لم يبلغ الشاة بغيته بما أنزل بأمته من الكوارث الساحقة الماحقة، فثاب إلى تكأته التى طالما توكأ عليها ضعاف الإيمان من أمراء المسلمين، فجمع حوله من رجال الدين عمائم كالتمائم ولحى كذيول الخيل، وجببا كأنها أوراق الكرنب، وسبحا لا تقل حباتها عن بيض الحمام وألسنا لا تريح كاتب السيئات»[٦٦]

مع هذا الرجل خاض فريد معركة «مصر للمصريين» ورغم أنف جاويش أمر فريد بأن يتم صنع دبوس للحزب الوطنى فى جنيف مكتوب عليه «مصر للمصريين» وكان جاويش يتوعد كل من يضع هذا الدبوس. وغنى عن القول إن صوت جاويش العالى والحاد ومحاولاته للانحياز للخلافة العثمانية قد دفعت البعض من الليبراليين ودعاة «مصر للمصريين» وكثيرا من الأقباط إلى الخروج من الحزب.

وعندما أعلنت بريطانيا حمايتها على مصر بدأت تركيا تعد لإرسال حملة عسكرية إلى مصر وتخوف فريد بشدة من مناورات

العثمانيين وكتب فى مذكراته (يوم ١٤ ديسمبر ١٩١٤) «هذا دليل جديد يضاف إلى غيره مما سبق ذكره على أن القوم (العثمانيين) يداعبون الحزب الوطنى ليساعدهم على فتح مصر وبعدها ينفذون ارادتهم الاستبدادية فى بلادنا» ثم يقول «أخذت أفكر فى جميع هذه الأمور فكاد يتأكد عندى عدم إخلاص القوم معنا»[٦٧]

بل إن فريد يقول : «كل هذه الأعمال تنفر المصريين من الأتراك وتجعلنا نخشى أن يكون نصيبنا الشنق لو دخل جمال باشا مصر»[٦٨]

وفى يناير ١٩١٦ وقبل أن تتضح كفة الغالب والمغلوب فى الحرب العالمية الأولى تحدث فريد مع الهر زمرمان وكيل الخارجية الألمانية قائلا «لا يجوز للترك أن يتدخلوا فى إدارة مصر لجهلهم بالبلاد وأهلها، بل لجهلهم بالإدارة أصلا ، كما هو مشاهد من إدارتهم لسوريا وغيرها من الأقطار، ونحن لا نقبل أن نكون تحت إدارتهم بأى حال من الأحوال، لأننا أرقى منهم كثيرا وبلادنا أكثر انتظاما منهم حتى فيما قبل دخول الإنجليز مصر، وبالاختصار يا سيدى فإن الأتراك يريدون أن يأكلوا مصر، ولكننا لا نقبل أن نؤكل بسهولة فنحن قاومنا الإنجليز ونقاوم كل من يريد أكلنا أيا كان لأننا إنما نسعى وراء الاستقلال وغاية ما نقبله، أن نكون مع الأتراك مثل المجر مع النمسا على شرط المساواة فى الحقوق والاستقلال التام»[٦٩]

وعندما أوشكت الحرب العالمية الأولى على الانتهاء، وإتضح أن تركيا وألمانيا ستهزمان بدأ البعض فى الضغط على فريد للتفاهم مع الإنجليز لكن فريد قال «إن أى اتفاق مع الإنجليز سيعنى الاعتراف

بالحماية وبالاحتلال وهذا ما لا يمكن التفكير فيه أصلا»

فماذا نفعل إذن؟ هكذا سأله البعض وأجاب فريد «حينئذ نشرع فى تجهيز الثورة فى مصر وليس الاعتراف بالحماية مهما كان شكلها ومهما أعطانا الإنجليز من امتيازات»[٧٠]

لكن الثورة قامت هاتفة بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، مؤكدة شعار مصر للمصريين. وكان فريد خارج البلاد.. وقاد الثورة بعض ممن كان يعاديهم فريد متهما إياهم بالاعتدال.

ويبقى فريد فى هجرته مشتاقا اشتياق المحب الولهان لمصر فيكتب لأسرته فى ٣ يوليو ١٩١٣ رسالة يقول فيها «لا تمضى ليلة بدون أن أرى فى المنام أننى فى مصر وفى منزل شبرا فى حالته الأولى، وأرى إخوتى وأولادهم، وهذا حقيقة أمر غريب»[٧١].

ويعرض عليه الأتراك أموالا طائلة شريطة أن يتنازل عن تمسكه بمصر للمصريين ويرفض، ويكتب لأسرته «أما أنا فلا أتزعزع مهما صادفتنى الصعوبات، حتى ولو تألمت من الجوع، لا أخضع ولا أتحول عن مبدئى ولا أبيع شرفى مهما كانت الحالة»[٧٢].

ولقد كان فريد يتألم فعلا من الجوع، هذا الأرستقراطى يشكو فعلا من الجوع ويرسل لأسرته «تضايقنى المسألة المالية جدا، لم يبق معى سوى بنتو واحد ولا أجد ما أدفعه للوكاندة وهو سبعة فرنكات غير المصاريف النثرية والغسيل والمزين وخلافه، اهتموا بهذا الأمر وتشددوا فيه حتى ولو أدى الحال إلى أن تقدمونى على مصروف البيت».

وبرغم الجوع والفقر الشديد وتنكر الجميع له.. تبقى «مصر للمصريين» هى الأمل الباقى.

ويحاول فريد فى آخر أيامه أن يتقرب من سعد زغلول فيقتطع من خبزه الشحيح ثمن برقية أرسلها لسعد وهو فى باريس «نحيى فيكم الوطن الغائب ونرجو كمال التوفيق» ولا يفكر سعد حتى فى مجرد الرد عليه.

وفيما هو يحتضر يكتب رسالة الوداع لمصر وللمصريين «إخوانى المصريين الأعزاء، إن الصوت الذى يناجيكم اليوم هو صوت منعته الظروف عن الارتفاع فى صحف مصر منذ سبع سنوات، لكن منعه من الارتفاع على ضفاف وادى النيل لم يكن عقبة تعوقه عن الدفاع عن القضية المصرية فى عواصم أوروبا» ويمضى قائلا «إن هذا الصوت يناجيكم من وراء البحار ليهنئ الأمة المصرية على تضافرها وتضامنها بحق أمنا المظلومة مصر» ويختتم رسالته بكلمات عشق عميق «فسلام عليك أيها الوطن المصرى، سلام على النيل ووادية، سلام على الأهرام وبانيه، سلام على خدام مصر المخلصين، سلام على شهداء الحرية»[٧٣]

وفى غرفة شديدة البرودة مجردة من الأثاث، وزجاج شباكها مكسور ومغلق بورق الصحف كان فريد يحتضر ، التف حوله بعض مما بقى من أصدقاء، واستمعوا إلى صوته الواهن والمتقطع «إنى أنا وأولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر، لقد قضيت بعيدا عن مصر سبع سنوات فإن مت فضعونى فى صندوق واحفظونى فى مكان أمين

حتى تتاح الفرصة لنقله إلى وطنى العزيز» وأغمض فريد عينيه ليحلم حلمه الأبدى.. مصر للمصريين.

وليستمع إلى صوت ثوار ١٩١٩ «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».

ولعلها واحدة من مفارقات القدر.. فالخلافة العثمانية أتت من تركيا وهزمت فى تركيا وأجهزت الثورة الكمالية على عرش الخليفة العثمانى وقادت تركيا فى طريق العلمانية.

ولعل اختفاء موج التأسلم فى نهاية مرحلة محمد فريد وانتصار شعار «مصر للمصريين» ينجم عن أمرين:

أولهما: إن مصر كانت تتحرك بكامل قواها نحو ثورة ١٩١٩ مطالبة بالاستقلال بما أخرس أى صوت مناوئ.

وثانيهما: إصرار القوى الوطنية وإلحاحها المستمر والمستميت على رفع شعارها الملهم ولعلهم طبقوا كلمة الفيلسوف أراسيموس «استحضر الضوء يختفِ الظلام من تلقاء نفسه، وقد استحضروا ضوء الوطنية المصرية فأخرسوا التأسلم.. فلماذا لا نفعل ذات الشىء؟ نستحضر ضوء الوطنية المبهر ليختفى «بوم» الظلامية عدو الوطنية المصرية».

* * *

ولعله من حق الفضول أن يسيطر على الباحث إذ يتأنى فى ملاحظة الفرق بين سرعة أبناء الأعيان فى تبنى شعار مصر للمصريين وبين تردد أبناء الطبقات الوسطى فى بداية الأمر بين شعار مصر للمصريين وشعار الخلافة. ربما كان السبب هو أن عدداً

من أبناء الأعيان (مثل أحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل وعديدين غيرهما) قد تلقوا تعليمهم بالخارج فعادوا لمصر مبهورين بفكرة الاستقلال والدولة المدنية ومدركين خطورة التضحية بمصرية المصريين فى سبيل شعار الخلافة . وربما كانت نزعة ليبرالية قد هيمنت عليهم أو ربما أدركوا أو تخيلوا أن استقلال مصر سيدفع بهم إلى سدة حكمها .. على أية حال كان الأمر كذلك . أبناء الأعيان المحافظون بطبعهم والذين تراجعوا كثيراً عن حلبات الصدام مع الإنجليز أو حتى ترددوا فى المطالبة الفورية باستقلال مصر كانوا أول من رفع شعار مصر للمصريين .

على أية حال . كان الأمر كذلك . نادى أبناء الأعيان بمصر للمصريين . وإن لم يتسارعوا للصدام مع الاحتلال . بينما تسارع أبناء الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة نحو التصادم مع الاحتلال فى إطار ترددهم - فى بداية الأمر - إزاء مصر للمصريين ميلا نحو الخلافة العثمانية .

وكان أحمد لطفى السيد هو الممثل الأساسى لتيار حزب أبناء الأعيان حزب الأمة وجريدتهم "الجريدة" . ومن هنا وجب أن نتلمس طريقنا إلى بعض من أفكاره فى هذا الصدد .

فعندما صرح كرومر بأن استقلال مصر أمر بعيد المنال وأنه مسألة أوربية محضة . رد عليه لطفى السيد فى إحدى خطبه قائلاً " إذا كان حل المسألة المصرية أو استقلال مصر أمرا أوربيا محضاً كما قال لورد كرومر فلا شك فى أن جميع الأعمال التحضيرية التى

تؤدى حتماً إلى استقلال مصر هى بيد المصريين ومن أعمالهم الذاتية ثم لا يكون من عمل أوربا إلا الاعتراف بذلك الاستقلال". ثم يلمح لطفى السيد إلى تحالفات الحزب الوطنى مع دولة الخلافة أو مع فرنسا فيقول " فى الماضى أخطأنا فى تقدير الواجب علينا وألقينا مسئولية العمل لاستقلال مصر على عاتق غيرنا فعلقنا آمالنا فى أول الأمر بالآستانة أى بحكومة السلطان وبقينا ننتظر ما يعمله لنا الأتراك فلم ننل من وراء ذلك شيئاً ". ثم ولى جماعة منا وجوههم شطر باريس وما جنينا من ذلك إلا وعوداً قد ذهبت بها الأيام "[٧٥].. ويرد لطفى السيد على البعض ، ومنهم أشياع الخلافة فى الحزب الوطنى فيقول " ويبعد عن الحق هؤلاء الذين يقولون إن الحركة الجديدة مظهر من مظاهر " البان إسلاميزم " pan-islamism أى الجامعة الإسلامية». ويرفض هذا الاتجاه بشدة قائلاً " إن المصريين أبعد الناس عن ذلك". ثم يختتم لطفى السيد خطابه قائلاً " وإنى شديد الاعتقاد بأنه سيأتى يوم يقوى فيه الرأى العام بخدمة رجال الأمة وبظلم الحكومة فيكون بيده الحق والقوى المعنوية ، قوة التماسك والاعتقاد ، ووقتئذ تصبح مصر للمصريين ". وفى خطبة أخرى حذر أحمد لطفى السيد من الاعتماد على قوة خارجية لنيل استقلال مصر "يجب علينا أن لا نعتمد فى بلوغ الاستقلال إلا على أنفسنا . وأن نتفق فى فهم من هو الوطنى المصرى وذلك بأن نعتقد اعتقادا جازما أن الوطنية المصرية تضم كل من ولد من أبوين مصريين أو من أقام فى مصر خمسة عشر عاماً من رعايا الدولة

العلية ، وكل من ينكر هذه الوطنية على أحد فإنما هو متجاوز حدود الوطنية الصحيحة " ثم يتحدث لطفى السيد بصراحة أكثر ربما ليوجع دعاة التأسلم فى الحزب الوطنى المنادين بشعار الخلافة فيقول " أيها السادة : أن الرأى العام لا تكون إرادته ذات أثر فعلى إلا إذا كانت مؤسسة على التضامن بين جميع الإفراد والشعور الكامل بالحاجة إلى هذا التضامن مدفوعة بعامل الوطنية والمنفعة القومية لا بعامل آخر من عوامل الدين أو الجنس الأصلى " ثم يكمل " لا أنكر أن بعض الساسة الأوربيين قد يتخذون الدين وسيلة للحصول على أمان سياسية وذلك رأى باطل وطريق خادع فلا يحسن بأحد المشتغلين بالسياسة عندنا أن يجاريهم فى هذا السبيل ، لأن الباطل فى يد القوى سلاح ردىء وغير منتج ، ولكنه فى يد الضعيف سلاح سمج وخطر يوشك أن يرتد إلى حامله فيقتله ، وإن الذين يدخلون بألسنتهم وأقلامهم فى تنبيه الأعصاب الدينية من جسم الأقباط أو من جسم المسلمين مهما حسنت نيتهم ومهما شرف غرضهم فإنهم لا يجنون من وراء ذلك إلا هدم التضامن بين أفراد الأمة وتوسيع مسافات الخلف بين الأخوين " ثم يقول " حسب المسلمين والأقباط تفرقا وهم جسم أمة واحدة ألا يجمعهم فى الصلاة معبد واحد ، وإنهم لا يتصاهرون ، فما لنا نتصدى لتجسيم هذه الفروق التى لا تضر، لنضيف إليها فروقا أخرى تهدم جامعتنا القومية ، إن اليهودية والنصرانية والإسلام أديان توحيد لا خوف على أمة دانت بها جميعا إذا تأصل الاعتقاد الصحيح فى نفوس

الأفراد وانتبذ التعصب بالخلاف مكانا قصياً " . ثم يقول فى حسم لا أشك فى أن وحدة الاعتقاد الدينى سبب من أسباب المشابهات بين الأفراد ، وعامل من عوامل التضامن ، ولكننى أنكر اشد الإنكار أنها تصلح لأن تكون فى القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية التى تبنى على المنافع وليس على المعتقدات الدينية وإلا لكان الإنجليز والألمان أمة واحدة" . ثم يسأل " هل يمكن أن يفضل القبطى منفعة أثيوبيا على منفعة مصر وهل يمكن أن يفضل المسلم المصرى منفعة تركيا على منفعة مصر " ثم يقول " نزلت الأديان لمنفعة الناس فلا يحل لنا أن نجعلها تتناقض مع هذه المنفعة " (٧٦)

وعلى أية حال ما لبث الطريقان أن التقيا فاتفق الجميع على شعار " مصر للمصريين " وإن اختلفوا فى طريق تحقيقه . ووقفوا ضد شعار الخلافة وإن كان البعض لم يزل يردده متجاهلا مصر وشعبها وتاريخها ومصالحها، ومتجاهلا أيضا صحيح الإسلام . وقد كانت معركة الاستقلال وثورة ١٩١٩ والتضحيات المشتركة للمصريين جميعا دون تمييز بسبب من الدين هى البداية الحقيقية لوأد شعار الخلافة وتمكين شعار مصر للمصريين .

الدرس إذن هو بالتضحيات المشتركة والعمل المشترك والمصالح المشتركة لكل المصريين على السواء ومن أجل مصر .. هو السبيل . هكذا كان الأمر وهكذا سيكون .

الهوامش

(١) راجع : عبد الرحمن الجبرتى:
- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
- مظهر التقديس فى زوال دولة الفرنسيس
محمد بن إياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور
(٢) الوطن - ٢٧-١٢-١٨٧٩ - مقال أديب اسحق.
(٣) محمد بك فريد المحامى - تاريخ الدولة العلية العثمانية- الطبعة الثالثة - بيروت (١٩٧٧) ص ٨٥.
(٤) على مبارك - الخطط التوفيقية - جزء ١ - تقريظ الطبعة الأولى بقلم الفقير إلى الله تعالى محمد الحسنين -ص ٢٢
(٥) الوسيط
(٦) المورد
(٧) ابن ابى الحديد- شرح نهج البلاغة - جزء٣ - ص٩.
(٨) سليمان كتانى- الإمام الحسين فى حلة البرفير- طهران- ص٧٢.
(٩) المرجع السابق- ص ٣٨.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) أبو جعفر الطوسى- تلخيص الشافى- الجزء الأول- ص٩.
(١٢) أبو بكر الطرطوشى- سراج الملوك- الباب السابع- ص١٥٦.
(١٣) الإمام أبو الحسن الماوردى- الأحكام السلطانية - ص ٢٥١.
(١٤) أبو نصر الفارابى- آراء أهل المدينة الفاضلة- ص١٨٩.
(١٥) حسن البنا- الرسائل- ص٢٧.
(١٦) عمر عبد الرحمن - حتمية المواجهة - ص٦٣.
(١٧) أبو الأعلى المودودى - نظرية الإسلام وهدية - ص٧١.
(١٨) الجرجانى - شرح المواقف.

(١٩) الإمام الغزالى- الاقتصاد فى الاعتقاد.
(٢٠) أبو حفص بن جميع- عقيدة التوحيد.
(٢١) الآمدى- غاية المرام فى علم الكلام- ص ٢٦٢.
(٢٢) لمزيد من التفاصيل راجع: تفسير البيضاوى
وأيضا - القرطبى - الجامع لأحكام القرآن.
(٢٣) ابن إياس - بدائع الزهور فى وقائع الدهور- الجزء ٢ - ص ١٣٤ وما بعدها.
(٢٣) د. عبد العزيز الشناوى - الدولة العثمانية - جزء ١ ص ٩.
(24) Wilfrid Blunt.. Secret History of The British occuption of Egypt, (1907) p30.
(٢٥) المرجع السابق- ص ٤٧.
(٢٦) التايمز - لندن - ٣-٦-١٨٨٢ نقلا عن عبد الله النديم - تاريخ مصر فى هذا العصر- مخطوط - حققه د. محمد خلف الله
(٢٧) سليم خليل نقاش- مصر للمصريين- الجزء ٥ -ص ٢٠١.
(٢٨) جلال الدين السيوطى- حسن المحاضرة.
(٢٩) رفاعة رافع الطهطاوى - تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - ص٢٩٩.
(٣٠) رفاعة رافع الطهطاوى مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية - ص٢٥.
(٣١) رفاعة الطهطاوى- المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين - ص٢٠.
(٣٢) د. جمال الدين الشيال- التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر- ص١٧.
(٣٣) رفاعة رافع الطهطاوى - أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوفيق بنى إسماعيل- ص١٥ وما بعدها.
(34) Valentine Chirol- Sir- The Egyptian Problem. London (1920)p. 75.
(35) Wilfrid Blunt. Ibid. p.130.
(36) Ibid. p. 281.
(37) Ibid. 290

(38) Edward Dicey -The Egypt of The Future-London (1908) - p. 79.

(٣٩) إبراهيم عامر- الأرض والفلاح - ص٨٩.

(٤٠) تيودور روزنشتين - دمار مصر- ترجمة على أحمد شكرى.

(٤١) المرجع السابق- ص٢٠٩.

(42) Gabriel Baer- A History of Land Ownership in Modern Egypt, Oxford (1992) p. 30.

(٤٣) التيمس ١٩٧٧/٦/٢٧.

(٤٤) على الحديدى - عبد الله النديم- ص ١١٦ - نقلا عن التنكيت والتبكيت.

(٤٥) المرجع السابق- ص٨٢.

(46) Blunt- Ibid- p. 344-347.

(47) Ibid. p. 264.

(٤٨) سليم خليل نقاش- مصر للمصريين- الجزء الخامس- ص٤٩.

(٤٩) المرجع السابق- ص١٤٩.

(٥٠) محمد بك فريد المحامى- تاريخ الدولة العلية العثمانية - ص ١٩٢.

(٥١) المذكرات - المرجع السابق- ص ١٩٦.

(٥٢) عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد- ص١٩٩.

(٥٣) المذكرات -ص ٦٥.

(٥٤) المرجع السابق- ص٩٨

(٥٥) المرجع السابق- ص٧٣.

(٥٦) المرجع السابق- ص ١١٤.

(٥٧) على فهمى كامل- سيرة مصطفى كامل- ص ٣٥١.

(٥٨) د. أنيس صايغ- الفكرة العربية فى مصر- ص٤٩.

(٥٩) المذكرات - المرجع السابق- ص ٢١٧.

(٦٠) المرجع السابق- ص ٢٢١.

(٦١) المرجع السابق - ص٨٣.

(٦٢) المرجع السابق - ١٩٦.

(٦٣) محمد صبيح - مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية - ص١٥٢.

(٦٤) أنور الجندى- عبد العزيز جاويش- ص٨٣.
(٦٥) العلم- ٣١- ١٠-١٩١٠
(٦٦) فتحى رضوان - مشهورون منسيون (١٩٧٠) - ص٣٦.
(٦٧) محمد صبيح - المرجع السابق- ص٢٨٩.
(٦٨) المرجع السابق- ص٣١٩.
(٦٩) عبد الرحمن الرافعى - محمد فريد- ص ٤٢٣.
(٧٠) محمد صبيح - المرجع السابق- ص ٣٢٠
(٧١) المصور - ١٤-١١-١٩٦٩ - مقال لعبد الخالق محمد فريد بعنوان : أبى كما عرفته من رسائله إلينا.
(٧٢) المرجع السابق.
(٧٣) الرافعى - المرجع السابق- ص ٤٣٧.
(٧٤) رسالة من محمد فريد مؤرخة فى ١٤ سبتمبر ١٩١٩.
(٧٥) الجريدة - ١٧ - مايو ١٩٠٨.
(٧٦) الجريدة - ٢٢ أغسطس ١٩٠٨.

(٢) طالبان
الجهل والأفيون

«والله ما سمعت بكلمة تضخم ولا أعرف معناها»
ملا محبوب الله رئيس البنك الوطني في قندهار

وكانت البداية كما نعرف جميعا هي انسحاب القوات السوفيتية الغازية من أفغانستان، وهنا تفرغ «المجاهدون» لذبح بعضهم البعض سعياً وراء الاستيلاء على السلطة. قاتلوا بعضهم وقتلوا بعضهم وآلافاً من مواطنيهم وكل منهم يتهم الآخر أنه كافر ومبدل لشرع الله. فما من سبيل آخر لإقناع المتحاربين إلا بأنهم يحاربون الكفار. وإذا كان كفار الأمس هم السوفييت فلا بأس من أن يكون كفار اليوم هم «إخوة الجهاد» في الأمس من أبناء الشعب الأفغاني طالما أن شهوة السلطة والتسلط التي تسلطت على كل قائد تتطلب ذلك.

وفي كل هذه الفوضى كان بن لادن وكانت طالبان. ونحن نعرف بن لادن ولسنا في حاجة إلى الحديث عنه. لكننا فقط نشير إلى أنه قاد الشعب الأفغاني إلى طريق الهلاك المادي والمعنوي. والغريب أنه لم يكتف بالزعم بقيادته الفكرية وإنما حاول أيضا أن يقول إنه قائد

عسكرى. وكان بئس القائد العسكرى. لا يهمه مصير من يقاتلون معه طالما أنه يستطيع الهرب والنفاذ بجلده. ولعله من المفيد ولو على سبيل الترفيه عن القارئ أن نقدم نموذجاً لمواهب بن لادن العسكرية.

ففيما كانت أفغانسان تقصف قصفاً حاداً عنيفاً كثيفاً قال بن لادن فى بيانه الأخير بعد أن قدم للعالم ولأمريكا المبرر الكافى لسحق أفغانستان فى أحداث ١١ سبتمبر " إن القوة العسكرية الأمريكية وإن أظهرت أمريكا استعراضها لهذه القوة فى أفغانستان فى الفترة الأخيرة وصبت جام غضبها على هؤلاء المستضعفين، فقد أخذنا بفضل الله سبحانه وتعالى دروساً عظيمة ومهمة فى كيفية مقاومة هذه القوة المتكبرة" ثم يقدم تصوراً تكتيكياً مثيراً للدهشة، لعله يفتقد أبسط قواعد التفكير العسكرى "لو ان خط الجبهة مع العدو يبلغ فى طوله١٠٠كيلومتر فينبغى أن يكون هذا الخط عريضاً بمعنى أن لانكتفى بخط دفاع بعمق أو بعرض ١٠٠ متر أو٢٠٠ متر بل ينبغى أن يعرّض هذا الخط إلى عدة كيلو مترات، وتحفر الخنادق على طول الجبهة وعلى عرضها، فكثافة القصف الأمريكى تستنزف قبل أن تصل إلى نهاية تدمير هذه الخطوط ، وتكون هناك قوات خفيفة وسريعة الحركة من خط إلى خط، ومن حزمة دفاعية إلى حزمة دفاعية، وبهذه الطريقة تمر السنوات ولا تستطيع أمريكا بإذن الله سبحانه وتعالى أن تكسر خطوط المجاهدين[١]

وفى ٢٥- ٩- ٢٠٠١ وجه أسامة بن لادن بياناً يحث فيه الشعب

الباكستانى على الجهاد ويقول"وأبشركم أيها الإخوة الأحبة أننا ثابتون على طريق الجهاد فى سبيل الله مع الشعب الأفغانى المؤمن البطل، وتحت قيادة أميرنا المجاهد المعتز بدينه أمير المؤمنين الملا محمد عمر، نسأل الله أن ينصره على قوى الكفر والطغيان وأن يحطم الصليبية اليهودية الجديدة على أرض باكستان وأفغانستان"[٢]

وهكذا لم يكتف بن لادن بدمار أفغانستان وإنما نقل «بركته» أيضا إلى باكستان.

* * *

ونأتى إلى "طالبان" أى الطلبة باللغة الباشتونية. وهؤلاء الطلبة هم ثمرة المدارس الدينية الباكستانية التى وجدت امتداداً لها فى أفغانستان.

ويقول تقرير رسمى باكستانى "إن عدد المدارس الدينية فى باكستان ٣٧٠٦ مدرسة يدرس فيها ٥٤٠ ألف طالب وطالبة ويضم إقليم البنجاب وحده غالبية هذه المدارس ١٦٨٦ مدرسة, أما الحدود الباكستانية الأفغانية فتضم ٦٨٦ مدرسة، وهذه المدارس تدرس فقط العلوم الشرعية واللغة العربية، ولا تهتم بالعلوم العصرية"[٣] فى هذه المدارس تخرج أغلب قادة طالبان مثل مولوى عبد الكبير رئيس حكومة طالبان والملا محمد حسن رحمانى والى قندهار، ومولوى سعيد الرحمن حقانى ومولوى شهاب الدين دلاور ومولوى حفيظ الله وثلاثتهم هم أكبر المسئولين فى وزارة الخارجية، والأهم من هذا أن

الملا محمد عمر زعيم طالبان، والملا محمد رباني رئيس مجلس الشورى تخرجا هم أيضاً فى هذه المدارس"[٤]

وابتداءً لابد لنا أن نفرق بين ملا ومولوى. فالمولوى هو طالب الدين الذى أتم تعليمه وتخرج عالماً فى الشريعة، أما الملا فهو طالب الدين الذى لم يتم تعليمه بعد. فالملا محمد عمر أو كما أسمى نفسه رسميا "المجاهد الأكبر خادم الإسلام أمير المؤمنين ملا محمد عمر المجاهد" مجرد طالب لم يتم تعليمه.

.. ونأتى إلى قصة قيام طالبان فبعد سقوط حكومة نجيب الله وماتلاها من اقتتال فرق "المجاهدين مع بعضهم البعض وقعت مذابح رهيبة استمرت من إبريل ١٩٩٢ وحتى منتصف ١٩٩٤. عقد ملا محمد عمر وكان يعمل مديراً لمدرسة صغيرة فى إقليم مايوان أحد مناطق إقليم قندهار اجتماعاً ضم عدداً محدوداً من الطلبة (الذين تعلم أغلبهم فى المدارس الدينية فى باكستان) فى قرية "كشك نخود" وأعلن قيام حركة تستهدف الاستيلاء على السلطة لإيقاف نزيف الدم وإعلان قيام الإمارة الإسلامية، وأحضروا قطعة قماش بيضاء وكتبوا عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله" ورفعوها على مبنى فى القرية معلنين قيام حركتهم ودولتهم.

لكن ذلك لا يعنى أن هذا هو العلم الرسمى لإمارة طالبان، فالإمارة ومنذ قيامها وحتى نهايتها كانت لاتعرف أو تعترف بعلم واحد، ربما لأسباب شرعية، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له علم واحد، وإنما عدة شارات. وهكذا فقد استخدمت طالبان العلم

الذى أشرنا اليه، وهو علم ذو رقعة بيضاء مكتوب عليها "الله أكبر"، وقد تكون الكتابة بالأسود أو الأخضر، وقد تستخدم رقعة بيضاء بلا كتابة، وقد جمع ملا عمر حوله خمسين طالباً هم كل من أتيح له أن يقنعهم بفكرته.

وقد منح ملا عمر نفسه فرصة تأسيس حركته عبر حصوله على فتوى شرعية من علماء المنطقة، وسرعان ما انضم إليه أحد أمراء الحرب فى ذات المكان واسمه "حاجى بشر". وكان الطلبة يسألون الملا عمر "كيف نقاتل وليس لنا قدرة كافية، فكان يرد عليهم بقوله "فلنتوكل على الله والتوكل على الله قسمان: توكل مع وجود الأسباب وتوكل دون الأسباب». وكان رأيه مع النوع الأول. وكان الملا عمر معروفاً بشجاعته وسداد تصويبه على الدبابات، وكان من جناح أكبر القادة الميدانيين للحزب الإسلامى (جناح يونس خالص). وبعد ذلك تشكل جيش طالبان من ٣١٣ مقاتلاً"(٥)

ونأتى إلى أفكار ومواقف وتركيبة دولة طالبان. وسوف نعتمد هنا على كتاب لمؤلف مصرى هو الأستاذ عبد الحليم غزالى الذى كان أحد الصحفيين القلائل الذين سمح لهم بزيارة "الإمارة"و واحداً من القلائل جداً الذين نالوا "بشارة" مقابلة أمير المؤمنين. (يعتقد الطالبان أن من يلتقى الملا عمر لن يدخل النار مهما فعل).

والكتاب عنوانه "طالبان العمائم والمدافع والأفيون – أمراء الجهاد المضاد فى أفغانستان" ولسنا بقادرين على تلخيص الكتاب، فقط سنستعرض بعض ملامح الإمارة عبر لقطات سريعة ومتعجلة.

– متوسط عمر كبار المسئولين في الإمارة ما بين ٢٠، ٤٠ عاماً. الملا عمر نفسه ولد عام ١٩٦٠، وأمير المال ملا عناية الله عمره ٢٢ عاما وهو لم يدرس أية علوم عصرية.

– وكبار المسئولين لايمكن تمييزهم إلا من السيارات التى يركبونها والجدية والصرامة التى تغلف وجوههم، أما الجميع فهم بذات الملابس عسكريين ومدنيين ورجال شرطة.

– عارف الله العارف نائب وزير الاقتصاد عمره ٣٠ عاماً لم يدرس الاقتصاد وليس لديه أية إحصاءات أو أرقام، وعندما سئل عن رأيه فى "العولمة" قال إنها أول مرة يسمع فيها هذه الكلمة.

– مدير دار الطباعة الرئيسية فى الإمارة الملا اختر محمد ٢٥ عاماً لم يكن يعرف شيئاً عن الطباعة عندما اختاروه لهذا المنصب.

– ملا محبوب الله رئيس فرع البنك الوطنى فى قندهار لم يدرس الاقتصاد ولا يعرف شيئاً عنه، ويقول ببساطة "ذهبت إلى كابول وتعلمت كيف تحفظ الأموال وكيف أدير الأمور، ويقول إنه لا يعرف معنى كلمة تضخم.

– مولوى رحمه الله مفتى قندهار عمره ٣٠ عاماً وهو عضو لجنة الفتوى العليا"[٥] وهكذا.

وماذا عن المنطلقات الشرعية؟

– "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده وهذا للأمراء، فإن لم يستطع فبلسانه وهذا للعلماء، فإن لم يستطع فبقلبه وهذا للعوام.

– المدارس الشرعية تقرر التركيز على بنائها وتعميمها حتى عام

٢٠٠٠ ثم وبعد أن يستقر الوعى الدينى فى أذهان الناس نعطى الفرصة للتعلم فى المجالات الأخرى.

– لايجوز الاختلاط بين الرجال والنساء فى أى مكان. ويجب توفير التعليم للنساء ولكن يجب توفير معلمات قادرات على تعليم العلوم الدينية، أما فى أيام الحرب فلا يمكن للمرأة أن تجد فرصة التعليم"(٦)

– لا يمكن الأخذ بالطريقة الانتخابية الغربية ولايجوز الأخذ بها، ولامجال لها فى الإسلام، ففيها يتساوى العالم والجاهل والواعى والخامل، والحكم فى الإمارة يقوم على ركيزتين ، أمير المؤمنين وأهل الشورى . واللجوء لأهل الشورى أعمال للآية الكريمة " وشاورهم فى الأمر" . أما حق الأمير فى اتخاذ القرار فيستنبط من الآية الكريمة "فإذا عزمت فتوكل على الله" .وأصل الشورى فى الإمارة قائم على المذهب الحنفى وهو استماع أمير المؤمنين لآراء مشاوريه أولاً وفى النهاية يظهر هو رأيه .

– الديمقراطية بدعة نصرانية مرفوضة .

– لا يجوز تصوير ما فيه روح.

– لا يسمح بالغناء أو الموسيقى فهما يدعوان إلى الفحشاء والأخلاق السيئة .

– "تدار الأمور فى "الإمارة" وفق فرمانات يصدرها أمير المؤمنين ولهذه الفرمانات الأولوية فى النفاذ"(٧)

– تستند الرؤية الفقهية لوضعية الإمارة إلى الحديث الشريف

"يعود الإسلام غريباً كما بدأ" ويقولون نحن الغرباء.. وعلى يدينا يعود الاسلام ليصبح كما بدأ.

- "وهم يرون أن الشيعة اربع فرق : التفضيلية وليست كافرة أما الثلاث الأخرى: الامامية الاثنا عشرية ، والإسماعيلية والثالثة التى تقول إن جبريل أخطأ فى حمل الوحى إلى محمد هؤلاء جميعاً كفرة.

- وأهل الذمة كاليهود والنصارى كفار . لأنهم أهل ذمة منحرفة . ومن يدعو منهم لعقيدته يضل الناس ويجب قتله.

-أما إيران فهى لاتعرف شيئاً عن الإسلام"[٨]

- أما عن الأفيون فالموقف منه غاية فى الغرابة تعاطيه حرام لكن زراعته مسموح بها .

ويقول تقرير للأمم المتحدة "إن تجارة الأفيون علنية فى أفغانستان، وفى منطقة سانجيان سوق بها ٢٠٠٠ محل اسمه سوق الأفيون ، ويشير التقرير إلى أن ٨٠٪ من الهيروين المستهلك فى أوربا يأتى من الأفيون الأفغانى " [٩]

ويبرر قادة طالبان سماحهم بزراعة الأفيون بأنه مصدر رزق للسكان ، ويقولون إنهم سيمنعونها عندما يجد هؤلاء السكان مصدر رزق آخر . ويستندون إلى القول الشرعى "الضرورات تبيح المحظورات".

ويقول تقرير الأمم المتحدة :"أن الحكومة الأفغانية تزعم أنها تحرم زراعة الافيون لكنها تحصل من زراعته على العشر" والعشر

شرعاً هو زكاة الزروع.

وقد زاد إنتاج الأفيون عام ١٩٨٨بنسبة ١٦٪ عنه فى العام السابق . بل إن ولاية بغلان زاد إنتاج الأفيون بها بعد استيلاء قوات طالبان عليها بنسبة ١٨٤٪. وقيمة الأفيون الأفغانى تبلغ ١٥٥مليون دولار أى أنه المحصول الأول فى البلاد"(١٠)

ثم نأتى بعد ذلك إلى علاقة "الإمارة" وأمير المؤمنين بأسامة بن لادن.

فى حديث نادر أجراه عبد الحليم غزالى مع الملا محمد عمر قال عن أسامة بن لادن "هو ضيف يجب علينا احترامه وحمايته، لكننا لانسمح لأحد بأن يمارس نشاطاً ضد الآخرين مادام هو فى بلدنا(١١) أما وكيل أحمد متوكل فقد أكد " لقد أجبنا على اتهامات الأمريكان بأنه يمول هجمات ضدهم ويصدر الأوامر بتنفيذها، بأن طالبان لم تسمح له بممارسة أى نشاط مغذ قدومه إلى أفغانستان فى الفترة الأخيرة عام ١٩٩٦" وقال " لقد جاءنا بيل ريتشاردسون (المندوب السامى الأمريكى فى الأمم المتحدة) وأراد أن يقنعنا بأن أسامة بن لادن شخص خطير وإرهابى فقلنا له هذا الرجل جاهد معنا فى الحرب ضد السوفييت ومن حقه أن يظل معنا . وعرضوا علينا الاعتراف بنا كدولة مقابل أن نسلمهم ابن لادن فرفضنا" (١٢) أما الملا محمد حسن رحمانى حاكم ولاية قندهار فقد قال "لقد اتفقنا مع ابن لادن على ألا يمارس أى نشاط ضد الآخرين ، أمريكا أوغيرها، ولكن مع الأسف نقض الاتفاق واتصل بصحافيين بعد

الهجوم الأمريكى على الإمارة وقال إنه سيقوم بنشاط فى الخارج ، فاتصل به أمير المؤمنين وأخذ منه تعهداً جديداً بعدم ممارسة أى نشاط سياسى مادام يعيش فى أفغانستان ، ونحن نطمئن الآخرين بأنه لن يمارس أى نشاط مستقبلاً بعد تعهده الأخير" وتابع قائلاً "ليس لأمريكا حق فى تسلم ابن لادن لاشرعياً ولا دولياً فهو لاجئ سياسى ، وإذا هددتنا أمريكا فنحن مستعدون للتصدى لها ، ونحن لانرى أنه قام بأية جريمة تستحق المحاكمة" وقال "ليس صحيحاً أن كل من يقتل يكون قد تعلم القتل فى أفغانستان ونحن ليس لنا أدنى علاقة بالجماعات التى تسمى إرهابية فى مصر والجزائر"[١٣] (كان أيمن الظواهرى مقيماً ونشطاً هناك).

أما الملا محمد حسن أخوند وزير خارجية طالبان فقد قال "إن أمير المؤمنين غضب من ابن لادن لعقده مؤتمراً صحفياً دون استئذان من طالبان اطلق فيه تهديدات ضد أمريكا بعد أيام من قصف المعسكرات فى خوست" وقال إنه شخصياً "كان مع إنزال عقوبة به لكن أمير المؤمنين أخذ ميثاقاً منه بألا يكرر ذلك مستقبلاً ، وذلك بعد أن اعتذر له ابن لادن واعترف بخطئه" [١٤]

وبرغم ذلك ظل بن لادن يمارس ما أراد من ترتيبات وأنشطة .

وفى أكتوبر ١٩٩٨عقد فى كابول مجلس الشورى الموسع والذى يسمى "أهل الحل والعقد" ويضم ١٥٠٠من كبار رجال الدين .. وأصدر المجلس بياناً أكد فيه على رفضه للإرهاب والأعمال الإرهابية وتدريب الإرهابيين فى الأراضى الأفغانية ، أو انطلاق أعمال

الإرهابية من أراضيها ضد أى بلد كان"[١٥]

وبعد ١١سبتمبر ، وبعد التهديدات الشديدة من جانب أمريكا انعقد ذات المجلس وأصدر قراراً ناشد فيه أسامة بن لادن أن يغادر الإمارة طواعية لكنه لم يفعل .. وبدأت الإمارة فى مناورات غير متقنة إذ أعلنت أن ابن لادن اختفى ولا تعرف مكانه. لكن أحداً لم يصدق ذلك .

والسؤال هو لماذا هذا الموقف المتردد..؟هناك أمران كان الخيار بينهما صعباً بل وشديد الصعوبة بالنسبة للملا عمر. كانت الإمارة تخشى الغضب الأمريكى والذى توقع الجميع أن يتحول إلى ضربة ساحقة .وقد عبر عن هذه الخشية الملا محمد حسن رحمانى حاكم ولاية قندهار قائلاً "الحرب مستمرة فى أفغانستان منذ ٢٠عاماً ، وقد دمرت بلادنا خلال هذه الحرب مادياً ومعنويا، ومهمتنا هى بناء أفغانستان من جديد، ومساعدة المجاهدين هنا أو هناك ليس فى قدرتنا، ولا نريد التدخل فى شئون الآخرين أبداً، والآن نحن نواجه صعوبات ومشاكل عديدة، ونحن لانفكر فى البلاد الأخرى، وهناك من يخاف منا دون مبرر وبلاسبب، نحن لانفكر فى محاربة أحد"[١٦]

أما الخيار الآخر الصعب فهو إغضاب التيار العام فى صفوف طالبان، وهو تيار تكون على أساس مقولات "جهادية" وأن "أمريكا هى العدو" و "الشيطان الأكبر" ، ومن هنا فإن الكثيرين من كوادر طالبان كانوا معجبين بابن لادن ، وكانوا على استعداد للتمرد دفاعا عنه.

وهكذا فن الملا عمر كان فى واقع الأمر أسيراً لأفكار متشددة غرسها بيديه فنمت لتثمر شوكاً حاصرة ثم دمره.

وبين شقى الرحى عاشت الامارة . وكان ابن لادن يعرف ذلك جيداً، فواصل عمله ضد الأمريكيين ليزداد تمسك الكوادر الطالبانية به . وقد كان .

ثم كان ماكان .

لكن زوال دولة الامارة الطالبانية لم ينه الوجود الطالبانى، فالهزيمة عندهم هى مجرد امتحان إلهى لاختبار صبر المؤمنين، والغباء الأمريكى وربما المخطط الأمريكى المقصود يزيد الوضع اشتعالا سواء فى أفغانستان أو باكستان، وتبقى البؤرة الطالبانية منبعا لمزيد من التأسلم الذى تستغله أمريكا فى فرض المزيد من السيطرة على المنطقة بأسرها بحجة مواجهة الإرهاب.

ومع المزيد من العنف الأمريكى المقصود ضد المدنيين تتصاعد حدة التأسلم. وتتحالف الجغرافيا الشديدة الوعورة مع الالتزامات القبلية مع القصف الأمريكى الوحشى المنظم والمقصود ضد المدنيين فى إشعال وقود العنف، ذلك الوقود الذى يغذى ماكينة المخطط الأمريكى فى جعل حكام أفغانستان وباكستان فى حاجة ملحة للوجود الأمريكى، تماما كما يغذى التسلط الأمريكى وقود الوجود الطالبانى فكلاهما بحاجة إلى الآخر كى يتواجد وكى ينمو.

إنه تحالف النقيضين الذى يحقق مصالح كل منهما ويمنح كل منها القدرة على الوجود ليزداد تناقضهما تناقضاً.

الهوامش

(١) نص بيان أذاعته قناة الجزيرة بصوت أسامة بن لادن.
(٢) نص بيان لأسامة بن لادن أذاعته قناة الجزيرة فى ٢٥-٩-٢٠٠١.
(٣) وزارة الشئون الدينية الباكستانية - تقرير عن المدارس الدينية - إسلام آباد (١٩٩٨)
(٤) تصريح أدلى به راشد الحق بن سميع بن عبد الحق أحد مديرى الجامعة الحقانية وهو ابن سميع الحق رئيس جمعية علماء الإسلام الباكستانية للصحفيين - أكتوبر ١٩٩٨.
(٥) تصريح لمولوى وكيل أحمد متوكل المستشار السياسى لملا محمد عمر - سبتمبر ١٩٩٨.
(٦) عبد الحليم غزالى - طالبان العمائم والمدافع والأفيون - أمراء الجهاد فى أفغانستان - القاهرة - ٢٠٠٠ - صـ٣٥
(٧) المرجع السابق - صـ٣٩
(٨) المرجع السابق - صـ١٠٣
(٩) المرجع السابق - صـ٤٣
(١٠) الأمم المتحدة - اللجنة الدولية لمكافحة المخدرات - ١٩٩٨
(١١) المرجع السابق
(١٢) عبد الحليم غزالى - المرجع السابق - صـ١٧٥
(١٣) المرجع السابق - صـ١٧٦
(١٤) المرجع السابق - صـ١٧٧
(١٥) المرجع السابق - صـ١٧٨
(١٦) المرجع السابق- ص٩٠.

(٣) الصـــومال
عندما تتوالد الثعابين

«إن ما يحدث فى الصومال أمر خطير. مات الشعب ودمر الوطن فأى جهاد هذا»

الشيخ عبد الرحيم عيسى. القائد العسكرى للمحاكم الإسلامية

والصـومـال نمـوذج آخـر.. حـركـة تـمـرد تـسـتـهـدف تحـقـيق الديمقراطية والتكافؤ بين الأقاليم وترفض دكتاتورية الحاكم والتمييز القبلى الإقليمى ثم تنتهى إلى تمزيق الوطن وإلقاء كل جزء منه وهو مشتعل ليزداد اشتعالا فى أحضان تأسلم مسلح وفئوى فى آن واحد. ولأن المثل الأفريقى يقول " كى تعرف مصير الشجرة ابحث فى جذورها " . فتعالوا نبحث فى جذور دولة الصومال .

أتت البداية الحديثة باستقلال المساحة المسماة أرض الصومال البريطانية عن بريطانيا فى ٢٦ يونيو ١٩٦٠، وبعدها مباشرة استقلت أرض الصومال الايطالية فى أول يوليو ١٩٦٠. ثم اتحدت المنطقتان فى ذات الشهر لتشكلا جمهورية الصومال . والصومال (٦٣٧ر ٧٠٠ كم - ٩ ملايين نسمة) يمثل بمساحته وموارده

وشواطئه قوة إقليمية كبرى فى المحيط الموجود فيه ، ومن هنا يأتى تفسير يقول إن دولا مجاورة تبذل جهدا مستمراً لإشعال نيران الحرب الأهلية حتى يظل الصومال طريحا تحت أقدامها . ولعل بعض الصوماليين يشعرون بالحنين لأيام اللواء محمد سياد برى (١٩٦٠ - ١٩٩١) فقد حافظ على حماية الدولة وحافظ على وحدة أراضيها وخاض حرباً ضد أثيوبيا وكينيا محاولاً استعادة إقليم أوجادين لكن زياد برى كغيره من حكام يماثلونه يسعون إلى تحرير أرض الوطن ويرفضون وبقسوة تحرير إرادة المواطن . فقد أقام حكماً عسكرياً ظالماً وشن حملات إبادة ضد المقاطعات التى حاولت التمرد على الحكم المركزى . والحقيقة أن دولة الصومال قامت منذ البداية على سياسة التمييز الجغرافى ، وبرغم أن شمال الصومال كان الأكثر حماساً للوحدة ، إلا أن الجنوب حصل على النصيب الأكبر (رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وأغلب الوزراء من الجنوب ولم يترك للشمال سوى ثلاث حقائب وزارية) بما دفع الشماليين إلى اللجوء إلى المحظور وهو الاستعانة بدول مجاورة فى تأسيس " جبهة تحرير أرض الصومال " وهكذا فتحوا أول ثغرة فى أبواب جهنم . لكن للصراع أبواب أخرى منها النزاع القبلى فسياد برى ركز النفوذ الإدارى فى يد أبناء قبيلته " المريحان" واستبعد أكبر قبيلتين وهما المجردين والإسحاقيين من مواقع التأثير ، بما أدى إلى مزيد من تذمر أبناء الشمال وتحركهم عسكرياً بدعم خارجى مطالبين بالاستقلال ثم تفاقمت الأزمة إذ أسس محمد فارح عيديد (١٩٨٩)

" حركة جنوب الصومال " وأطبقت المعارضة من الشمال والجنوب وأطاحتا بالحكم العسكرى الشرس الذى كان يرتدى ثياباً متشددة وطنياً تتزين أيضاً بالقول بالاشتراكية.

ويتكشف الأمر عن أكثر من باعث للاختلال فى العلاقات بين مكونات الدولة المركزية . شمال - جنوب ، قبائل وعشائر متصارعة ، ثم صراعات مصالح اقتصادية واجتماعية بين المكونات الاقتصادية للمجتمع الصومالى وهى " الرحل - سكان الريف - سكان المدن" . وقد تأجج هذا الصراع بسبب من التفاوت الشديد فى تقديم الخدمات الاجتماعية والاقتصادية لهذه المجموعات. وبسبب من تفاوت فى العادات فالبدو يتعاملون بالمقايضة بينما سكان المدن يستخدمون النقود .. وهكذا.

ومن ثم نبتت فى الأرض الصومالية بذور الحقد على الدولة المركزية وعلى مكوناتها الأمر الذى يلاحظ فى سعى المتصارعين بالسلاح نحو هدف يكادون أن يجمعوا عليه وهو تدمير الحكم المركزى وسلطته وأجهزته وحتى ما أقامه من مبان ومنشآت ومؤسسات .

وهنا بدأ التدخل الأجنبى وكانت أمريكا أولا ثم مالبثت أن انسحبت تاركة المهمة لأثيوبيا التى أرسلت قواتها لتعود فتسحبها دون أن تسحب تدخلها فى تأجيج النيران . ثم إرتيريا التى وضعت قدمها بحذر والتى انتهى الأمر بها إلى مساندة سافرة لجماعة هى الأكثر تشدداً " شباب المجاهدين " ، وذلك برغم قول إريتريا أنها

دولة علمانية . وكانت هناك كينيا التى تطمح هى أيضاً إلى تركيع الصومال وانتزاع إقليم أوجادين منه وتنازع فى ذلك أيضاً أثيوبيا . ومع تدهور الحكم المركزى واشتداد صراع البنادق والذى اتخذ طابعاً قبلياً وإقليمياً وفئوياً أعلن إقليمان صوماليان استقلالهما هما " بلاد بونت" – (بونت لاند) وأرض الصومال (صوماليلاند) أما ماتبقى من الصومال فقد خضع لصراعات مسلحة لا تنتهى . وهنا أطل المتأسلمون من مختلف فروع القاعدة على هذه المنطقة التى لايحكمها أحد حكماً حقيقياً والتى يتمركز النفوذ فيها لمن يكون أكثر تسلحاً وربما أكثر وحشية . ومع دعاوى التأسلم انزوى المجتمع المدنى ودعاة الوحدة الوطنية والراغبون فى إنقاذ الصومال واستعادة هيبة الحكم المركزى وقيامه على أساس ديمقراطى يحترم حقوق المكونات الجغرافية والقبلية والاقتصادية . ومع التهاب الصراع تحول التأسلم بذاته إلى سلاح وسلاح مضاد بحيث يشهر كل طرف سلاحه فى وجه الآخر زاعما أن هذا الآخر هو الكافر وعدو الله. والكاسب فى الصراع هو الأكثر تشدداً . لكن للتأسلم الصومالى مذاق خاص . فمع انهيار الولاء للدولة المركزية تحول الولاء إلى القبيلة . فالقبيلة هى المرتكز وهى فى نفس الوقت الحصن. ولهذا فإن السياسيين القدامى يعيشون فى اطمئنان فى أحضان قبيلتهم أو عشيرتهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لبارونات الحرب الأهلية ووقودها من الأفراد ففى حالة أى انكسار أو تراجع لمجموعة مسلحة تكون أحضان القبيلة جاهزة وفيها ينسى المتصارعون مؤقتاً

صراعاتهم ليعيشوا فى ذات الأحضان .

ولأن مفاتيح الصراع ليست فى أيدى الصوماليين وإنما فى أيدى من يمولون ويسلحون ويدربون فى الخارج فإن كل محاولات التوفيق بين المتصارعين تفشل . يتفقون أو يتظاهرون بالاتفاق ثم تحركهم الأيدى الأجنبية إلى صراع جديد .

وهكذا وبعد وفاة اللواء فارح عيديد العدو الرئيسى للتدخل الأمريكى والأثيوبى (١٩٩٦) خيل للبعض من المتصارعين القابلين للتدخل الأجنبى بمختلف ألوانه أن هناك إمكانية للاتفاق . وعقد اجتماع فى القاهرة (١٩٩٧) اتفق مبدئياً على إنهاء الصراع المسلح وإقامة حكومة مركزية على أسس قومية . وعاد الصراع فالاتفاق لم يحترمه أحد . فالمفاتيح الخارجية رفضته . وفى عام ٢٠٠٠ عقد اجتماع جيبوتى واختير عبد القادر صلاد حسن رئيسا للصومال الموحد لكن القوى الموالية لأثيوبيا أفسدت مهمته. ثم جاء رئيس جديد . ثم اتفاق لدى متدخل آخر هو كينيا حيث عقد اتفاق بين بارونات الحرب والسياسيين المدنيين ورؤساء القبائل على تشكيل برلمان جديد لانتخاب رئيس جديد، ثم يتبخر الاتفاق . وتتوالى الاتفاقات ويتوالى الرؤساء ، ويبقى الصراع . فقد تبلورت مصالح اقتصادية ومالية لا ترغب فى وجود حكم مركزى . فبارونات الحرب على اختلاف ألوانهم المتأسلمة ينالون دعماً مالياً كل من سيده بالخارج ، وفوق هذا يفرضون على الصيادين إتاوات وصلت إلى حوالى ٣٠٠ مليون دولاراً فى عام ٢٠٠٧. كما تشكلت مصالح من تهريب الصوماليين

والأفارقة عبر خليج عدن مقابل ٥٠ دولار للفرد . ثم هناك ، الأتاوة على حصيلة أعمال القرصنة . وحتى أمريكا التى تزعم أنها تحارب تنظيم القاعدة هناك تضخ أموالاً وسلاحاً ليس من أجل إقامة حكم مركزى ديمقراطى وإنما لدعم فصيل موال لها . وترددت معلومات عن تشكيل قوات مسلحة جديدة موالية لأمريكا تحت اسم " قوات مكافحة الإرهاب وإرساء السلم " والثمن المدفوع مقدماً هو ٨٠ مليون دولار .

والحقيقة أنه ما من مرة أقرأ أو أكتب عن الإرهاب المتأسلم . أو يتفجر أمام أعيننا فعل إرهابى هنا أو هناك إلا وأتذكر الآية الكريمة " قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً "(الكهف) وهم دوماً الأخسرون أعمالاً ليس فقط لأنهم يتجاوزون حدود الإسلام وحقوق الآخر الذى قد يختلف معهم فى رؤية أو رأى ، وإنما لأنهم يعيدون تشكيل عقلية أتباعهم بمنطق يرفض كل من اختلف معهم أو تخلف عنهم ولو نصف خطوة . فتكون النتيجة أنهم ما إن جلسوا وتناقشوا واختلفوا حتى يتقاذفوا الاتهام بالكفر . "أميرهم " أو " شيخهم " لقنهم أن الآخر الذى يختلف عن نهجهم هو كافر ويستحق القتال ضده حتى القتل . فإذا بالثعابين الصغيرة تتشدد فما إن يشتد عودها حتى ترفض منطق الأمير أو الشيخ إذ يحاول أن يجد حلا أو نصف حل ، فتقذفه بالاتهام بالكفر وتحمل سلاحها الذى زودها به ودربها عليه وعلمها كيف ترمى به الكفار لتهاجمه هو معلنة أنه الكافر .

هكذا كان الأمر فى أحيان كثيرة . شاهدنا كيف حدث فى أفغانستان حيث احتشد "المجاهدون" ضد الغزو السوفيتى وبدلاً من أن يخوضوا حرب تحرير وطنية، منحوا قتالهم صبغة دينية صرفة وظل التشدد يستدرج التشدد والمزيد منه ، حتى تمترست فى العقول فكرة أن الذى يخالفك فى الموقف أو الرأى هو الكافر . وما إن انسحبت الجيوش السوفيتية حتى تفرغوا لقتال بعضهم البعض حيث رأى كل " أمير " منهم أنه الأولى والأجدر بالحكم ، وهذا صراع سياسى فى جوهره لكنهم أحالوه إلى صراع دينى ليصبح الطرف الآخر هو الكافر الذى يجب قتاله وقتله . واستمروا فى ذبح بعضهم البعض حتى جاء من هو الأكثر تطرفا والأشد قسوة ملا عمر فأقام دولة طالبان .. التى نعرف جميعا كيف انتهت .

وفى الصومال حدث ويحدث ذات الشىء. تأسلم النضال الوطنى والديمقراطى بفعل فاعل . وساد الفكر المتطرف وتدافعت قوى التدخل الخارجى تسلح وتمول وتدرب . البعض يبحث عن نفوذ والبعض مكايدة لدولة أخرى تكايده فالتهب الصراع برغم أنه صراع مصالح بعضها خارجى ولاعلاقة له بالإسلام كدين وبعضه تحركه مصالح شخصية حول من يكون الأمير المطاع .

وقد صبرت عن لذة الأمر أنفس

وما صبرت عن لذة الأمر والنهى

وتبدأ الثعابين الكبيرة فى التعرض لانقسامات واتهامات من الثعابين الصغيرة ثم لايلبث هذا الاختلاف أن يتحول إلى قتال مرير

يدمرون فيه بعضهم البعض ويدمرون خلال ذلك كل ماتبقى من الوطن . ولعل الثعابين الكبيرة لاتدرك أنها السبب . فهى التى لقنت الصغار ومنذ البداية أن الآخر المختلف هو المبدل لشرع الله فى حين أن الاختلاف لاعلاقة له بشرع الله وإنما هو خلاف مصالح يتستر بالإسلام كمبرر، ولقنتهم أن قتل المبدل لشرع الله هو حتمية شرعية ، وهكذا تراهم يتبادلوا نلقتل والقصف ويهدمون الوطن أو كل ما تبقى منه ويقتلون الأبرياء وكل طرف منهم يسمى مايفعله جهاداً .. أى أن من يسمى نفسه " مجاهداً " يجتهد فى قتل آخر يسمى هو أيضاً نفسه " مجاهداً " .

وقد حدث ذلك فى الزمن الأول عندما تستر الصراع على الحكم برداء دينى وتبادل المتصارعون تكفير بعضهم البعض بما دفع سعد بن أبى وقاص إلى الابتعاد عن هذا التردى المخيف فى التستر بالدين لقتل الآخر الذى ينازعه السعى نحو السلطة والسلطان . ابتعد قائلا " والله لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان وشفتان ويقول هذا مسلم وهذا كافر " .

وهكذا فإنه لايبقى أمام الثعابين الكبيرة إلا أن تردد

إنا بأيدينا جرحنا قلبنا

وبنا إلينا جاءت الآلام

وهكذا وإذ دمرت وبفعل فاعل كل القوى المدنية القادرة على تسلم زمام الأمور فى البلاد وتعطلت مؤسسات الدولة غرقت البلاد فى صراعات مسلحة أغلبها يقاتل ببنادق وصواريخ قدمتها قوى خارجية

واتخذ الكثير منها رداء متأسلماً زاعماً أنه يقاتل من أجل إقامة دولة الإسلام . ثم كان الهجوم الذى شنته القوات التى أسمت نفسها " المحاكم الإسلامية " الأمر الذى دفع الحكومة الصومالية إلى الاستعانة بالقوات الأثيوبية لمواجهة سيطرة هذه " المحاكم " على أغلب الأراضى الصومالية . وهزمت المحاكم أمام الجيش الأثيوبى وانسحب قادتها إلى خارج البلاد حيث تحالفوا مع قوى المعارضة المدنية الأخرى فى مؤتمر أسمى " مؤتمر أسمرة" و عقد فى ٢٠٠٧ ، وقد أدى ذلك إلى انشقاق مجموعة من "الشباب" أسموا أنفسهم " شباب المجاهدين" وحاربوا قادة " المحاكم " بذات سلاحهم المتأسلم متهمين إياهم بالتحالف مع علمانيين، والتخلى عن فكرة قيام الحكم الإسلامى ويقول الخبراء إن قوات "الشباب " تضم حوالى ٦٠٠٠ عنصر وأنهم يتلقون تدريبهم فى بلدة مجاورة وإنهم تلقوا من تنظيم القاعدة دعماً قوياً بالسلاح والأفراد وأن " الشباب "سبق لهم أن أرسلوا بعض " مجاهديهم" للقتال مع حزب الله فى لبنان فى ٢٠٠٧ . وقد شنت أمريكا ضربات جوية ضد قواعد " الشباب " انتهت بقتل قائد الحركة آدن جاشى ميرو المكنى أبو حسين الأنصارى وكان مطلوباً لأمريكا لاتهامه بالضلوع فى تفجير سفارتيها فى نيروبى ودار السلام .

وفى تصريح للشيخ عبد الرحيم عيسى القائد العسكرى للمحاكم أدلى به فى نيروبى يقول " إن مايدور فى مقديشو عمل خطير . وأن أحداً لا يستطيع أن ينسب إلى نفسه نصراً ، فقد مات من الشعب

مايزيد على ثلاثمائة ألف مدنى ودمرت كل البنية التحتية للصومال وباختصار مات الشعب ودمر الوطن فأى نصر هذا " وقال الشيخ عبد الرحيم " إن الخلاف بدأ فى ٢٠٠٦ وأن الشباب لايرون أحداً مسلماً إلا هم وأن من ليس معهم فهو كافر، ويبقى أن نقرر أن صاحب هذا التصريح وهو القائد العسكرى للمحاكم الإسلامية قد أدلى بهذا التصريح وهو بعيد عن مسرح القتال الوحشى فى الصومال وبعد أن أشعل فى بلاده نيران فتنة متأسلمة لم تهدأ ولن تهدأ إلا بهزيمة التأسلم الذى غرسه هو بيديه ، فقد كان يتحدث فى نيروبى وربما أيضا فى فندق شديد الفخامة. " ويبقى أن نشير إلى تصريح لرئيس جمهورية جيبوتى الذى حاول مراراً إيجاد حل توافقى بين المتصارعين وفيه يطالب المجتمع الدولى " بفرض حظر دولى على تحركات بارونات الحرب الصوماليين واعتبارهم مجرمى حرب ، فكيف نقبل منهم أن يشعلوا نيران الحرب بينما هم يتجولون فى العالم ويقيمون هناك فى فنادق فاخرة " ويقول " يجب أن نجبرهم على الحضور إلى هذا المستنقع العفن الذى صنعوه بأيديهم وأذلوا فيه شعبهم ودمروا وطنهم ".

التأسلم.. والمصير

ويبقى بعد ذلك سؤال يتعين علينا البحث عن إجابة له.

والسؤال هو: لماذا يندمج هؤلاء المتأسلمون فى الدراما التى يحيكون أطرافها بأيديهم ينسجون الوهم والكذب والالتواء بالقول والافتعال فى التفسير، ثم يصدقون ما نسجوا من خيالات، ينساقون خلف الوهم وينتهى بهم الأمر إلى هزائم قاسية يهزمون ولا يتوقفون، فالهزيمة محنة وامتحان من الله وعليهم الصبر وانتظار النصر «وكان حقا علينا نصر المؤمنين». لكن الإسلام يحض المسلمين على الأخذ بالأسباب وهو يخاطب مسلمين أنقياء أتقياء لا يحركهم الغرض ولا الهوى ولا المصلحة الشخصية.

ولهذا تتوالى الهزائم ولا يتعلمون

الإخوان المسلمون ١٩٤٨ -١٩٥٦ وصالح سرية ثم شكرى

مصطفى ثم الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد ، ثم عمر عبدالرحمن فى أمريكا ، ثم...ثم١١سبتمبر؟

هذا السؤال يحتاج إلى إجابة متأنية.

فهل كان هؤلاء جميعاً يتطرفون فى الفكر ثم يصدقون تطرفهم . يشربون من بئر التأسلم المرير ثم يمارسونه عملاً فيحاصرهم بالتطرف ؟ وألف هل أخرى تفرض علينا أن نبحث عن اجابة .

وبرغم أن البدايات عميقة فى بئر التاريخ الإسلامى إلا أننا سنتوقف عند نقطة مهمة ، وربما كانت فاصلة.وهى الفكر أو المعتقد الشيعى، "فجميع أهل الشيعة تقريباً يسلمون بأن الأئمة هم الذين وصفهم القرآن الكريم بالراسخين فى العلم ، ولذلك فإنهم وحدهم دون سواهم بعد النبى محمد(صلى الله عليه وسلم) ماعدا الله تعالى ذاته يعلمون بدقة متناهية المعنى الحقيقى للكلمة المقدسة"[١]

ويميز الكرمائى بين "النطقاء" وهم الأنبياء الذين يأتون بشريعة وكتاب مقدس ، أما "الأسس" فهم خلفاؤهم المباشرون والمتتابعون ويعملون على تقديم التأويل لتلك الشريعة والكتب المقدسة ذاتها.[٢]

ويرى المفكرون الشيعة أن "الأسس"أو "الراسخون فى العلم" هم وحدهم المؤهلون للتعرف بدقة متناهية على المعنى الكامن فى النص. بل لعلهم أيضاً – عند الكثيرين من مفكرى الشيعة – يصلون إلى معرفة المغزى "الباطن" والقوى"الكامنة"خلفه وان كانت مستورة فى مستوى خارج أو خلف الرمز الوارد فى النص.

وبرغم أن كل من نتحدث عنهم هم من السنة إلا أنهم قد تأثروا

بفكرة"الراسخون فى العلم" وأعطوا لأنفسهم هذه الصفة، وصدقوا ذلك ، فاستمدوا من هذا التصديق الحق فى الاعتقاد بأنهم العارفون بالمعنى الكامن للنص .وان اختلفوا عن الشيعة فى أنهم تمسكوا بحرفيته ولم يقبلوا أى تأويل بعيد عنه . بل وأحياناً لم يقبلوا أى اجتهاد. أو كما يقول شكرى مصطفى "فقط قال الله وقال الرسول ، لاقياس ولاتأويل ولا إجماع"

ونقدم مثالاً مفجعا لفكر شكرى مصطفى إذ يقول: "جاء فى الحديث نحن أمة أمية لاتقرأ ولا تحسب. والرسول(صلى الله عليه وسلم) لايقرأ،وكان فى قدرته أن يقرأ ويحسب. والرسول قال نحن أمة أمية أى نحن جميعاً". ثم "ولقد خرجت كما هو معلوم من هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس. أى أن خير أمة أخرجت للناس أمة أمية ، ويقصد بالأمة الأمية عموم أهل الأمة وغالبيتها ، ولامانع من وجود قراء وكتاب فى هذه الأمة ولكن بقدر الضرورة"[٣]. ثم يعود ليؤكد"والذى نعنيه من ذلك أن جماعة الحق فى آخر الزمان ، التى ستخرج للناس مرة ثانية سمتها وعمومها أنها أمة أمية لأنها تدخل فى قول الرسول : نحن أمة أمية".

وشكرى مصطفى لمن لا يعلم أتى مثل كثير من المتأسلمين من عباءة جماعة الإخوان، كان معهم، وفى سجن طرة تأثر بأفكار سيد قطب فأخذ يصيح فى قادة الإخوان عاتباً عليهم "من العار على المسلمين أن يمسك بهم كالدجاج دون مقاومة، كنتم تكذبون على أنفسكم وعلى الناس عندما كنتم تقولون: الموت فى سبيل الله أغلى أمانينا"[٤].

ثم نأتى إلى موضوعنا .. كيف تصور شكرى مصطفى(أمير آخر الزمان) معركته ضد العدو (أو كما أسماه روم العصر) ونسمع إليه إذ يقول "الضابط فى ذلك أن ما جاء بنص عام يبين أن هذا الأمر من دين الله، وأنه من أعمال المسلمين وأنه لايكون إيمان بغيره . وإذا جاءت النصوص بهذه الصورة فحينئذ يلزمنا الاتباع . فمثلاً عندما يقول الله سبحانه "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" فهو خطاب موجه إلى المسلمين فى أول الزمان ، وفى آخر الزمان. والقوة كما جاء فى الحديث هى الرمى، والخيل هى الخيل . فإذا جاء من يقول إن الخيل لاتصلح الآن فنقول له نحن عندما نقاتل سيكون قتالنا بالسيف والرمى والخيل " ثم "وقد جاء فى الحديث الشريف الجنة تحت ظلال السيوف، فالجنة هى الجنة والسيف هو السيف، ولوشاء الرسول لقال الجنة تحت ظلال الأسلحة أو تحت ظلال البنادق".

ونمضى مع شكرى مصطفى لنزداد دهشة "أن الوسائل الإسلامية فى القتال تنبثق من الأصول الإسلامية للمسلمين ، الكافرون يقاتلون مثلاً فى قرى محصنة أو من وراء جدار، أما أسلوب القتال عند المسلمين فهو ينبثق من الأصول الإسلامية فى القتال ، وهى مواجهة رجل لرجل لأنها نفوس باعت الدنيا واشترت الآخرة . أن أصول الكافرين فى القتال أصول كانت نتاجاً طبيعياً لمعصية الله سبحانه، وهى أعدت بأموال كافرة ، وأصول كافرة، ولقد صنعتها الجاهلية بجاهليتها وليس بإيمانها وتقواها ، إذن فيكون

أسلوبهم معتمداً على الوسائل الجاهلية"

ويواصل " قاتل النبى بالسيف ، والجماعة المسلمة من بعده قاتلت بالسيف، والجماعة المسلمة فى آخر الزمان ستقاتل بالسيف"[٥]."وعندما ستعود الدولة المسلمة بالجماعة المسلمة فإن الرماية ستعود وأن الخيل ستعود. فوسيلة المسلمين فى القتال وسيلة متكررة، وأن الله برحمته وبعزته قد برأ الجماعة المسلمة من وسائل الكافرين الجاهلية الحديثة"[٦]

ويواصل شكرى مصطفى فى توسماته قائلاً إن تابعه سأله وكيف نواجه صواريخ ودبابات روم العصر (وهم كما قال الاتحاد السوفييتى وأمريكا) فأجبته"قال تعالى : وكان حقا علينا نصر المؤمنين . وهكذا علمنا أن الله برحمته وعزته سيهلك الكافرين، وبهذا يتحقق الأمل المرجو .. ونصبح فى غنى عن إعداد قوة من صواريخ ومدافع" ، ثم يكمل فى حسم " يومها سيقول الحجر تعالى يا مؤمن هناك رومى يختبئ خلفى ثم تجد الحجر وقد دك رأسه"[٧]

فقط نذكر أن شكرى مصطفى وأتباعه عندما اختطفوا الشيخ الذهبى كانوا حاملين أسلحة نارية ثم قتلوه بطلق نارى من مسدس، وهو متاع جاهلى كافر.

وقبل شكرى مصطفى كان صالح سرية "جماعة شباب محمد" وهو أيضاً صاح فى وجه الجميع مؤكداً "ان كل الأنظمة العربية وكل البلدان الآسلامية اتخذت مناهج ونظماً وتشريعات غير الكتاب والسنة ، ولهذا فقد كفرت بالله ، واتخذت من نفسها آلهة وأرباباً

فكل من أطاعها فهو كافر لأنه اتخذ له رباً سوى الله. ومن مات منهم دفاعاً عن حكومات الكفر ضد من قاموا لإقامة الدولة الإسلامية كفار، إلا إذا كانوا مكرهين فإنهم يقتلون ثم يبعثون على نياتهم"[٨]

وكان من فرط ثقته فى نفسه وفى النصر الحتمى يعتقد جازماً أن حفنة من طلبة الكلية الفنية العسكرية سيمكنهم الاستيلاء على السلطة. وفى ١٧-٤-١٩٧٤تحرك الطلاب وبسذاجة شديدة، وقبض عليهم والمثير للدهشة أنهم اعترفوا وعلى الفور باسم زعيمهم، والأكثر أثارة للدهشة أن صالح سرية كان قد صدق نفسه فعلاً فأعد بياناً ليذاع فى الإذاعة والتليفزيون وكتبه بخطه وكان عنوانه "بيان من صالح سرية رئيس الجمهورية" "بسم الله الرحمن الرحيم قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على شىء قدير، أيها الشعب الحبيب، أيتها الأمة المجاهدة الصابرة، لقد نجحنا والحمد لله صباح اليوم فى السيطرة على الحكم، واعتقال جميع المسئولين عن النظام السابق وبدأ عهد جديد"[٩]

أما أيمن الظواهرى فقد شرب من هذه الآبار جميعاً.. وتحدث طويلاً عن أهمية الأخذ بالأسباب ، والإعداد الدقيق لخطط "الجهاد" وتهكم قائلاً "إنهم يقولون عنا إننا إنصاف مجانين لأننا نتصور قدرتنا على هزيمة أمريكا ومن معها من اليهودية والمسيحية العالمية، ونسألهم ألم نهزم الاتحاد السوفييتى أكبر قوة برية فى العالم؟"[١٠]

ورأينا أيضاً كيف أن ملا محمد عمر قال"نتوكل على الله ونأخذ

بالأسباب"[١١] لكن أحداً منهم لم يأخذ بالأسباب أخذاً فعلياً. كان الأخذ بالأسباب عندهم منصباً على التستر والإتقان فى توجيه الضربة، والقدرة على تدمير أكبر قدر من رموز الخصم، لكن كان هناك يقينهم بأنهم هم "الراسخون فى العلم" وأنهم كما قال زعيمهم الحديث سيد قطب "الأعلى سنداً، والأعلى قدراً" أنه ما أسمى فى أدبياتهم بالاستعلاء بالإيمان[١٢]

ولعل هذا قد أفقدهم توازنهم فعجزوا عن رؤية حقيقية لتوازنات القوى.

والأخذ بالأسباب لا يعنى فقط إتقان الضربة ، وإتقان تنفيذها، وأتقان التستر، وإنما يعنى وقبل هذا كله رؤية تستشرف النتائج المباشرة وغير المباشرة، وتداعيات هذه النتائج.

هم دوما يرددون الآية الكريمة "وكان حقاً علينا نصر المؤمنين" لكنهم لم يسألوا أنفسهم نصرهم فى ماذا؟ ولماذا؟ وضد من؟ أو هل هم المقصودون حقا بالمؤمنين أم لا؟

وهم يرددون دوماً لأنفسهم ولنا كيف حارب الملائكة مع المؤمنين فى غزوة بدر، لكنهم لم يسألوا أنفسهم أين كان الملائكة يوم "أحد". ولماذا هزم المسلمون؟ فلو نزلت الملائكة فى غزوة أحد لما استعد المسلمون أبداً، ولما حاربوا، بشكل جدى ولسيطر عليهم التواكل انتظاراً للملائكة.

فالأخذ بالأسباب يعنى تقييم الأوضاع، ولكنهم فى غمرة حماسهم، واستحسانهم لأفكارهم، وترفعهم على الآخرين، أو ما

يسمونه الاستعلاء بالإيمان. يتيهون خيلاء باستعلائهم.. فيكون ما كان.

ويتكرر الأمر، يتكرر ولايتعلمون.

فهل هذه الصفة لصيقة بالتأسلم؟ ربما.

* * *

لكن الحديث عن التأسلم وما يستدعيه من اندفاع غير محسوب العواقب لا يكتمل – فى اعتقادنا – إلا بمطالعة بعض مايصل إليه المتأسلمون من جنون وربما من افتقاد الذكاء .

فالجهل المتأسلم يتجلى فى كثير من الكتابات لعل أفدحها هو ما سنستعرضه الآن. فثمة كتاب وزع فى الأسواق منذ عدة سنوات ، ثم عاد إليه البعض خلال الأيام الأولى من الغزو الأمريكى للعراق، والكتاب عنوانه يكفى ويزيد"البيان النبوى بانتصار العراقيين على الروم(أمريكا وبريطانيا) والترك وتدمير إسرائيل وتحرير الأقصى" أما المؤلف فيقدم نفسه كما يلى "الأستاذ الدكتور فاروق الدسوقى الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية "وأنه عمل كأستاذ للعقيدة بجامعتى الملك سعود وأم القرى سابقاً". ويقوم الكتاب على فكرة واحدة خلاصتها أن ثمة أدلة قرآنية وأخرى فى السنّة وثالثة فى الكتب السماوية الأخرى يتوجب علينا دراستها لنتعرف على كل ما وقع، وكل ما سيقع حتى قيام الساعة . وهو يقول ويؤكد أن "الروم" (الأمريكيين والإنجليز) يدرسونها ويستفيدون منها بينما نحن غافلون عنها . "إن مجالس الأمن القومية فى الدول

العظمى بعامة، وفى الولايات المتحدة بخاصة ترجع إلى الكتاب المقدس والقرآن والسنة، ثم إلى المنجمين والكهان" وأن "أخطر ما يمكن أن يفيدهم هو ما جاء فى القرآن أو السنة عن أنباء المستقبل، وآخر الزمان، وعلامات الساعة، وأماراتها، وبخاصة ما جاء عن الحروب والصراعات والملاحم التى بينهم وبين المسلمين، وذلك ليستعدوا، وليخططوا على أساس هذه الأخبار" (١٣)

ونمضى مع المؤلف إذ يتحدث عن "أشراط" قيام الساعة فينقل عن الحافظ بن كثير (المتوفى ٧٧٤ أى بعد الهجرة بنحو ثمانية قرون إلا قليلاً) ترتيب حدوث هذه الأشراط كما ورد فى كتابه "البداية والنهاية فى الفتن والملاحم" والترتيب كالتالى:

المهدى- فتح القسطنطينية ورومية أى غزو أوربا - خروج الدجال - نزول المسيح عليه السلام وقتله للدجال- خروج يأجوج ومأجوج - ثم الدابة - طلوع الشمس من مغربها- الدخان من السماء"(١٤)

لكن الأستاذ الدكتور يعتب على ابن كثير أنه لم يورد "الأشراط" التى تسبق المهدى . ومن ثم فهو يعود إلى البرزنجى فى كتابه "الإشاعة فى أشراط الساعة" حيث رتب الأشراط كما يلى: السفيانى - المهدى - الملحمة الكبرى وغزو الروم أى أوربا - الدجال ثم نزول المسيح عليه السلام وقتله الدجال وإبادة اليهود - خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم - خروج القحطانى والجهجاه ثم الهيثم والمقعد - طلوع الشمس من مغربها - دابة الأرض- الدخان من السماء - الريح الطيبة التى تقبض أرواح المؤمنين - عقم النساء - رفع القرآن

من المصاحف – رجوع الناس إلى عبادة الأوثان – النار التى تخرج من قعر عدن وهى آخر الآيات والعلامات" [١٥]

هذه هى أشراط الساعة التى يؤكد المؤلف أن مجلس الأمن القومى الأمريكى يدرسها بعناية بينما نقصر نحن فى ذلك.

لكن ما يهمنا هنا هو بدايتها أى "السفيانى".. وهو صدام حسين كما يؤكد المؤلف "فهو سفيانى لأنه من نسل خالد بن يزيد بن أبى سفيان كما تقول النصوص، فهو من سلالة الخلفاء والملوك الأمويين الأمجاد الذين أعز الله تعالى بهم الإسلام، فلا غرابة أن يعز الله به الأمة فى زمن ذلها وينهضها من كبوتها "[١٦]

ثم يمضى المؤلف لينسج خيط الأحداث قائلا: "تتطابق أخبار السفيانى فى السنة الشريفة(!) مع اسم الأشورى مدمر اليهود فى سفر أشعياء. والآشورى موطنه الأصلى آشور وهى قريبة من تكريت مسقط رأس صدام حسين" ثم ولكى تزداد دهشتنا يقول "واستناداً إلى ما يزعم أنه السنة الشريفة أن السفيانى يظهر أول ما يظهر بالحصار العالمى على العراق". ثم "يحارب الروم (أوربا وأمريكا) أربعين يوماً يكون هو فى العراق وقائده يحاربهم فى عمق الجزيرة، وليس فى هذه الملحمة منتصر ولامنهزم. وهو ماكانوا يطلقون عليه حرب تحرير الكويت"[١٧] وهو يتحدث فى موقع آخر عن هذه الحرب قائلاً "لقد صمد جيش العراق أمام سبع وثلاثين دولة على رأسهم أمريكا وانجلترا وفرنسا جبابرة الأرض، أليس عجيباً أن يخرج الجيش والنظام فى العراق من هذه الحرب صحيحاً واقفاً على

قدميه"[١٨] .. ونمضى مع الرحلة فبعد هذه الحرب، ستقوم حرب أخرى.. يخوضها السفيانى (صدام حسين) فيحارب الروم (أمريكا وإنجلترا وفرنسا وغيرهم من الأوربيين والترك) ويقتل من الروم مايشبع السباع والطيور من لحومهم، ويأسر منهم مائة ألف فى موضعين: قرقسياء وهى عند مصب نهر الخابور فى نهر الفرات، والموضع الثانى بعاقرقوف وهواسم قرية أصبحت الآن فى بغداد، وينزل بالترك ذبح الله الأعظم ويساعده الله عز وجل إما بالثلج أو الطاعون" وبعد ذلك "يظهر أمره وينتصر النصر الذى يتمكن به من دخول المسجد الأقصى فى موقعة فاصلة فى وادى اليابس وهو موضع جنوب الجولان وبعدها يدخل فلسطين ويستولى على نصفها، ويصل إلى القدس فى يوم واحد، ويقتل من اليهود ما يجعلهم مدوسين كطين الأزقة" ثم "يحكم أكثر أرجاء المنطقة ، ويملك ملك نبوخذ نصر والمدينة ومكة، علاوة على الكويت وبعض بلاد الخليج والأردن وسوريا وفلسطين ويجعل عاصمته دمشق"[١٩]

ولا مجال لمزيد فكل الكتاب على هذه الوتيرة. يستقى من كتب تراثية ما يعود هو ليصوغه وفق هواه، وكأن هذه الروايات التى لا لها علاقة بالإسلام ولا بالقرآن ولا بالسنة ولا بالعقل بحاجة إلى مزيد من الجنون.

ولعلنا كنا نحمد للمؤلف أنه يتمادى فى تحليلاته "العميقة" والمفصلة حتى يصل بنا إلى الصحاف والعلوج..إلخ.

ولست أدرى على أية حال أين يختبئ هذا المؤلف من تحليلاته

وتصنيفاته، لعله يبحث عن رواية قديمة أخرى تبرر كل ما حدث.

على أية حال أنا ما أوردت هذه الأسطر على سبيل الفكاهة والمزاح، أو حتى على سبيل التشفى من المؤلف، وإنما لأوضح مدى الخطر الذى يقع فيه المتأسلمون إذ يطالعون هذه الكتب المليئة بالخرافات باعتبارها كل الحقيقة أو حتى باعتبارها جزءاً من "المقدس الدينى" ويبنون عليها أوهامهم فى النصر الحتمى . ولعل واحداً من رجال ان لادن أقنعه هو أيضاً بأنه هو "السفيانى" وليس صدام.. وأنه..

الهوامش

(١) بول ووكر – الفكر الإسماعيلى فى عصر الحاكم بأمر الله – ترجمة سيف الدين القصير – دمشق (١٩٨٠) – صـ١٠١

(٢) حميد الدين الكرمانى – الرسالة الحاوية فى الليل والنهار – ٣٩٩ هـجرية. وقد صنفها المؤلف رداً على التساؤل حول أولوية وربما أفضلية الناطق أم الأساس.

(٣) شكرى مصطفى – التوسمات – المرجع السابق – صـ٢٥

(٤) أحمد رائف – سراديب الشيطان صفحات من تاريخ الإخوان (١٩٨٩) – صـ٥٣

(٥) شكرى مصطفى – التوسمات – المرجع السابق – صـ٥٦ (مخطوط)

(٦) المرجع السابق – صـ٥٨

(٧) المرجع السابق – صـ٥٩

(٨) صالح سرية – رسالة الايمان – صـ١٨

(٩) حيثيات الحكم الصادر فى قضية "جماعة شباب محمد" المعروفة إعلامياً بقضية الفنية العسكرية.

(١٠) أيمن الظواهرى – فرسان تحت راية النبى – المرجع السابق– صـ٣٧

(١١) عبد الحليم غزالى – طالبان العمائم والمدافع والأفيون صـ٣٤

(١٢) سيد قطب – معالم فى الطريق. صـ٣٤

(١٣) الأستاذ الدكتور فاروق الدسوقى – البيان النبوى بانتصار العراقيين على الروم (أمريكا وبريطانيا) والترك وتدمير إسرائيل وتحرير الأقصى – الطبعة الثانية (١٩٩٨) – صـ١٧

(١٤) نقلا عن: الحافظ بن كثير – البداية والنهاية فى الفتن والملاحم – صـ١٨٢

(١٥) البرزنجى – الإشاعة فى أشراط الساعة

(١٦) د.فاروق الدسوقى – المرجع السابق – صـ٢٠

(١٧) المرجع السابق – صـ٢٧
(١٨) المرجع السابق – صـ١٠
(١٩) المرجع السابق – صـ٣٤

خاتمة

وما من خاتمة تصلح لموضوع كهذا، فالثعابين تتوالد من الثعابين وتتصارع مع بعضها البعض وتحتمى بالتأسلم وبالسلاح وبالتكفير. والحل هو أن يحتشد المجتمع، كل المجتمع فى كل وطن ليعلى من شأن الوطن والمواطنة ، وليشيع روح الليبرالية والاحترام المتبادل وإعلاء شأن العقل بحيث لا يكون عليه من قيد إلا العقل ذاته ، وتحرير الفكر من قيد التقليد ومن التشويهات التى راكمها فقهاء أو بالدقة متفيقهون بلا ضمير قالوا بفتاوى لا تتفق مع الدين ولا تخدم مصالح العباد وإنما هى محض تملق للسلطان. وليس أمامنا إلا أن نعود إلى الفقه الصحيح الذى أفتى به فقهاء أنقذوا أنفسهم ودينهم وقولهم من وهدة نفاق السلطان، ولعل مصدر ما يسمى بالفقه المتأسلم وليس الإسلامى هو فكرة الخلافة ذاتها لأنها فرضت خليفة

يزعم أنه يتحدث باسم السماء فيكون تملقه تمسحاً بالسماء ، والسماء لا تحتاج إلى تملق من أحد وإنما تحتاج منهم إلى إيمان صحيح. ثم إنها فرضت مع الخليفة سمعا وطاعة له ولكل ما يفعل ، ولكل ما يقول.

ولقد كانت هذه الكتابة مجرد محاولة لنفى علاقة فكرة الخلافة بصحيح الإسلام أو بمصالح البلاد والعباد. فالخلافة كفكرة وكواقع عملى كانت ولم تزل وبالا على الإسلام والمسلمين.

فإن حققت هذه الكتابة قدراً ولو ضئيلا من ذلك فهذا يكفينا ويزيد.

المحتوى

- بداية 7
- ثـــم..... 27
- (١) مصـــر 29
- (٢) طالبان
الجهل والأفيون 75
- (٣) الصـــومال
عندما تتوالد الثعابين 89
- التأسلم.. والمصير 99
- خاتمة 113

رقم الإيداع: ١٧٤١٤/ ٢٠٠٩

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراڤيتلى سابقاً)